مكتبة الأسرة ١٩٩٨

مهرجان القراءة للجميع

من رسائل الجاحظ

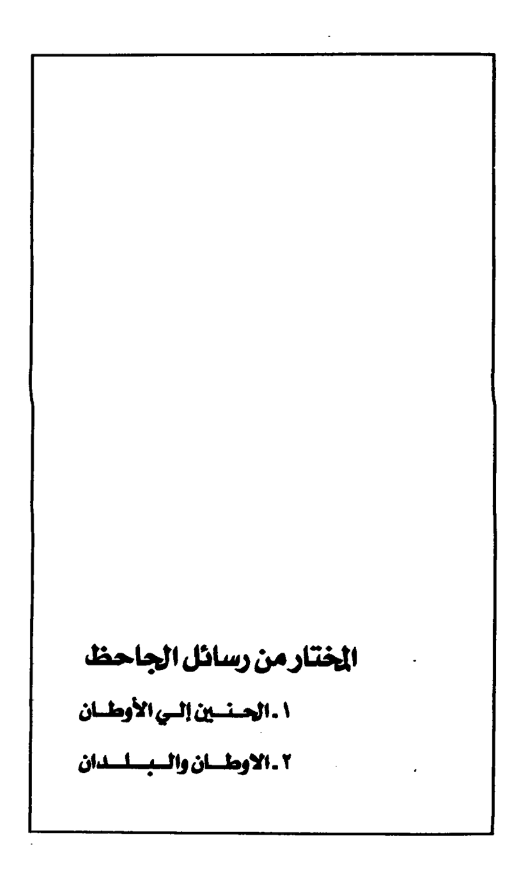
الحنين إلى الأوطان
الأوطان والبلدان

تحقيق وشرح / عبد السلام هارون









المختار من رسائل الجاحظ

١ . الحنين إلى الأوطان

٢ . الاوطان والبلدان



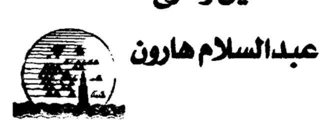
المختار من رسائل الجاحظ

١ - الحنين إلى الأوطان

٢ - الأوطان والبلدان

تحقيق وشرح

عبد السلام هارون





مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة التراث)

المختار من رسائل الجاحظ

إعداد : د. سمير سرحان
د. محمد عنانى

الغلاف
للفنان جمال قطب
الإشراف الفنى:
للفنان محمود الهندى
المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د . سمير سرحان

تصديـــر

سبق لمكتبة الأسرة أن قـدمت نماذج رائعة من كتابات الجاحظ فى العـامين السابقين ، فـقدمت فى العـام الماضى مخـتارات من كتاب **الحيوان** وفى العـام الذى سـبقـه مـخـتارات مـن كتـاب **البخلاء**. وهى تقدم فى هـذا العام نماذج من **رسائله** . والرسالة الأولى هى **الحنين إلى الأوطان** والقسم الثانى يتضمن فصولاً من كتابه **الأوطان والبلاد** وهما من تحقيق وشرح العلامة الكبير عبد السلام هارون .

ولا شك أن موضوع الأوطان جديد أو كان يـعتبر جديداً فى عصر الجاحظ ، وهو يناقشه بأسلوبه الرشيق الواضح الذي يتميز بالدقة والثراء معـاً ، فهو كاتب ينتمى بفكره ومنهـجه إلى عصر العقل والتنوير ، ويتجسد منهجه الفكرى فى أسلوبه ، مثلما يدل أسلوبه على منهجه «الحديث» فى التفكير المنطقى والاستدلال .

ويسعد مكتبة الأسـرة أن تقدم إلى الطامحين من كُتّاب اليوم هذين النموذجين الرائعين من كتابات الجاحظ .

مكتبة الأسرة

من رسائل الجاحظ

(١)

رسالة
الحنين إلى الأوطان

تحقيق وشرح

عبد السلام هارون

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ لكلِّ شيءٍ من العلم ، ونوعٍ من الحكمة ، وصِنفٍ من الأدب ، سبباً يدعو إلى تأليف ما كان فيه مشتّتًا ، ومعنًى يحدو على جمع ما كان منه متفوقاً . ومتى أغفل حَمَلَةُ الأدب وأهل المعرفة تمييزَ الأخبار واستنباط الآثار ، وضمَّ كلِّ جوهرٍ نفيسٍ إلى شِكله ، وتأليف كلّ نادر من الحكمة إلى مِثله - بطَلَت الحكمةُ وضاع العلم ، وأمِيت الأدبُ ، ودَرسَ مستور كلِّ نادر .

ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر ، ونقرهم آثار الأوائل فى الصَّخر ، لبطَل أولُ العلم وضاع آخِره . ولذلك قيل : «لا يزالُ الناس بخيرٍ ما بقَى الأولُ يتعلمُ منه الآخِر» .

وإن السبب الذى بعث على جمع نتفٍ من أخبار العرب فى حنينها إلى أوطانها ، وشوقها إلى تُربها وبلدانها ، ووصفها فى أشعارها توقُّدَ النار فى أكبادها ، أنّى فاوضتُ بعضَ من انتقل من الملوك (فى) ذكر الدِّيار ، والنِّزاع إلى الأوطان ، فسمعته يذكر أنه اغترب من بلدِه إلى آخرَ أمهدَ من وطنه ، وأعمر مِن مكانه ، وأخصبَ من جَنابه . ولم يزلْ عظيمَ الشأنِ جليلَ السُّلطان ، تدين له من عشائر العرب ساداتُها وفتيانها ، ومن شعوب العجم أمجادها وشُجعانها ، يقود الجيوش ويَسُوس الحروب ، وليس ببابه إلا راغبٌ إليه ، أو راهبٌ منه ؛ فكان إذا ذكرَ التُّربة والوطنَ

إذا ما ذكرتُ الثَّغر فاضت مدامعي ... وأضحى فؤادى نُهبةً للهَماهمِ[1]
حنيناً إلى أرضٍ بها أخضرُ شاربي ... وحُلَّت بها عنِّي عُقودُ التمائم
وألطفُ قومٍ بالفتى أهلُ أرضه ... وأرعاهُمُ للمرء حقَّ التقادمِ

وكما قال الآخر[2] :

يَقَرُّ بعيني أن أرى مَنْ مكانُه ... ذُرى عَقِدات الأبرق المتقاودِ[3]
وأن أردَ الماء الذى شربتْ به ... سُليمى وقد مَلَّ السُّرى كلُّ واخدِ[4]
وألصق أحشائى ببرد ترابها ... وإن كان مخلوطاً بُسمِّ الأساودِ[5]

فقلت : لئن قلتَ ذلك لقد قالت العجم : من علامة الرُّشد أن تكون النفسُ إلى مَولدها مشتاقة ، وإلى مسقط رأسها تَوّاقة[6] .

(١) المحاسن والمساوى للبيهقى ١ :٤٩١ . والهمهمة : الكلام الخفى ، والمراد الهواجس.

(٢) هو نبهان بن عكى العبشمى ، كما فى الكامل ٣١ واللآلى ٢٢٦ وزهر الآداب ٩٤٠ نقلاً عن المبرد . وعزيت النسبة فى زهر الآداب أيضاً إلى حليمة الخضرية فى رواية الزبير بن بكار ، وانظر أمالى القالى ١ : ٦٣ وعيون الأخبار ٤ : ١٣٨ .

(٣) العقد بفتح فكسر : المتراكم من الرمل ، واحدته عقدة . والمتقاود : المستطيل على وجه الأرض ، يقال قاد ، وانقاد ، وتقاود ، أى استطال .

(٤) الواخد : بالخاء المعجمة ، عنى به من وخد به بعيره ، أى أسرع ووسع الخطو ، وفى الكامل : «كل واجد» بالجيم .

(٥) كذا فى الأصل والتيمورية ، فالضمير فى «ترابها» عائد إلى العقدات . وفى سائر المراجع : «ببرد ترابه» ، بعود الضمير إلى الماء .

(٦) وكذا فى محاضرات الراغب ٢ :٢٧٦ . وفى المحاسن والمساوى ١ :٤٩٦ . «إلى أوطانها مشتاقة . وإلى مولدها تواقة» .

وقالـت الهند : حُرمة بلدِك عليك مِثل حـرمة أبويـك ؛ لأنّ غذاءك منهما ، وغذاءهما منه .

وقال آخر : احفظ بلداً رشَّحك غِذاؤه[1] ، وارعَ حِمىً أكنَّك فِناؤه . وأولَى البُلدان بصبابتك إليه بلدٌ رضِعْتَ ماءه ، وطعمت غذاءَه .

وكان يقال : أرضُ الرجُلِ ظِئـرُه ، ودارُه مَهده . والغريب النائى عن بلده ، المتنحِّى عن أهلـه ، كالثَّور النادِّ عن وطنه[2] ، الذى هو لكلِّ رامٍ قَنيصة .

وقال آخر : الكريم يحنُّ إلى جَنابه ، كما يحنُّ الأسَد إلى غابه .

وقال آخر : الجالى عن مسقط رأسـه ومحلِّ رضاعِه ، كالعَير الناشط عن بلده[3] ، الذى هو لكل سبعٍ قَنيصة ، ولكلَ رامٍ دريئة .

وقال آخر : تُربةُ الصبا تَغرس فى القلب حُرمة وحلاوة ، كما تغرس الولادةُ فى القلب رقَّةً وحفاوة .

وقال آخر : أحقُّ البُلدان بنزاعكَ إليه بلدٌ أمصَّكَ حَلَبَ رَضاعِه .

وقال آخر : إذا كان الطائر يحنُّ إلـى أوكاره ، فالإنسانُ أحقُّ بالحنين إلى أوطانه .

---

(١) الترشيح : التربية والتقوية .

(٢) ند يند ندوداً : شرد وذهب على وجهه .

(٣) الناشط : الثور الوحشى يخرج من بلد إلى بلد ، ومن أرض إلى أرض .

وقالت الحكمـاء : الحَنين من رقّة القلب ، ورقّة القلب من الرِّعاية ، والرِّعاية من الرَّحمة ، والرَّحمـة من كرم الفطرة ، وكرم الفطرة من طهارة الرُّشدة ، وطهارة الرُّشدة من كرم المحتد .

وقال آخر : ميلك إلى مولدك من كرم مَحتِدك .

وقال آخر : عُسرك فى دارك أعزُّ لك من يُسرك فى غربتك .

وأنشد :

لقـربُ الدار فى الإقــتـار خـيـرٌ   من العـيش المـوسَّع فى اغـتـرابِ

وقال آخر : الغريب كالغَرْس الذى زايل أرضـه ، وفقد شِربَه ، فهو ذاوٍ لا يثمر ، وذابلٌ لا ينُضر .

وقال بعض الفلاسفة : فطرة الرجل معجونةٌ بحبِّ الوطن .

ولذلك قال بُقراط يُدَاوَى كلُّ عليلٍ بعقاقير أرضه ؛ فإنّ الطبيعةَ تَتَطلَّع لهوائها ، وتنزِع إلى غذائها .

وقال أفلاطون : غذاء الطبيعة من أنجع أدويتها .

وقال جـالينُوس : يتروّح العليل بنسيم أرضـه ، كما تنبت الحـبة ببَلِّ القَطْر .

والقول فى حبِّ الناس الوطن وافتخارهم بالمحـالِّ قد سبق ، فوجدنا الناسَ بأوطانهم أقنعَ منهم بأرزاقهم .

ولذلك قال ابن الزُّبير : «لو قَنَع الناس بأرزاقهم قناعتَهم بأوطانهم ما اشتكى عبدٌ الرِّزق ».

وترى الأعرابَ تحنُّ إلى البلد الجَدْب ، والمحلِّ القفر ، والحجَر الصَّلْد ، وتستوخِم الرِّيف ، حتَّى قال بعضُهم :

أتَجلِينَ فى الجَالِينَ أم تتصبَّرى على ضيق عيشٍ والكريمُ صبور[1]

فبالمِصر بُرغوثٌ وحُمّى وحَصْبَةٌ ومُومٌ وطاعونٌ وكلُّ شُرورِ[2]

وبالبيد جوعٌ لا يزالُ كأنَّه رُكامٌ بأطراف الإكام يَمورُ

وترى الحضَرىَّ يُولد بأرضٍ وباءٍ ومُوتان[3] وقلَّة خِصْب ، فإذا وقع ببلادٍ أريفَ من بلاده ، وجَنابٍ أخصبَ من جَنابه ، واستفاد غنًى ، حَنَّ إلى وَطنه ومستقرِّه .

ولو جمعنا أخبارَ العرب وأشعارَها فى هذا المعنى لطال اقتصاصُه ، ولكن توخَّينا تدوينَ أحسنِ ما سَنَح من أخبارهم وأشعارهم ، وبالله التوفيق .

---

(١) أراد : أم تتصبرين . فحذف النون لغير جازم كما أنشدوا من قوله :

أبيت أسرى وتبيتى تدلكى وجهك بالعنبر والمسك الذكى

(٢) فى البيت إقواء . والموم : الجدرى الكثير المتراكب .

(٣) الموتان : بالضم : الموت الكثير الوقوع .

ومما يؤكِّد ما قلنا في حبِّ الأوْطان قولُ الله عزّ وجلّ حين ذكر الدِّيار يُخبِر عن مَواقعها من قلوبِ عباده فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾[1] ، فسوّى بين قتل أنفسهم وبين الخروجِ من ديارهم . وقال تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾[2] .

وقال عمر رضي الله عنه : «عَمَّر الله البُلدانَ بحبِّ الأوطان» .

وكان يقال : لولا حبُّ الناس الأوطانَ لخسِرت البُدان .

وقال عبد الحميد الكاتب ، وذكَر الدُّنيا : «نَفَتْنا عن الأوطان ، وقطعتنا عن الإخوان» .

وقالت الحكماء : أكرم الخيل أجزَعُها من السَّوط ، وأكيس الصِّبيان أبغضُهم للكُتّاب ، وأكرم الصَّفايا أشدُّها ولَهًا إلى أولادها ، وأكرم الإبل أشدُّها حنيناً إلى أوطانها ، وأكرم المِهارَة[3] أشدُّها ملازمةً لأمِّها ، وخير الناسِ آلَفُهم للناس .

وقال آخر : من أمارات العاقل برُّه لإخوانه ، وحنينه لأوطانه ، ومداراته لأهل زمانه .

---

(١) الآية ٦٦ من سورة النساء .

(٢) الآية ٢٤٦ من سورة البقرة .

(٣) المهار والمهارة ، بكسر الميم فيهما : جمع مهر ، بالضم . ، وهو ولد الفرس والرمكة ونحوهما .

واعتلَّ أعرابيٌّ فى أرض غربة ، فقيل له : ما تشتهى ؟ فقال : حِسْل فلاة ، وحَسْو قِلات[1] .

وسئل آخر فقال : مَحْضًا رويًّا[2] ، وضبًّا مشويًا .

وسئل آخر فقال : ضبًّا عنينًا أعور .

وقالت العرب : حماك أحَمى لك ، وأهلك أحفَى بك .

وقيل : الغُربة كُربة ، والقلة ذلة . وقال :

لا ترغبوا إخوتى فى غربة أبدًا   إنّ الغريب ذليلٌ حيثما كانا

وقال آخر :

وقال آخر : لا تنهض من وكرك فتنقُصَك الغُرْبة ، وتَضيمَك الوَحدة.

وقال آخر : لا تجفُ أرضاً بها قوا بِلُك ، ولا تشكُ بلداً فيه قبائلك.

وقال أصحاب القيافة فى الاسترواح : إذا أحسَّت النفس بمولدها[3] تفتَّحتُ مَسامُّها فعرفَتِ النَّسيم .

---

(١) الحسل ، بالكسر : ولد الضب . والقلات : جمع قلت ، وهى نقرة فى الجبل تمسك الماء .

(٢) المحض : اللبن الخالص لم يخالطه ماء ، حلوا كان أو حامضاً . وفى الأصل والتيمورية : «مخضا» ، تصحيف صوابه فى المحاسن ١ : ٤٨٧ .

(٣) المراد بالمولد هنا موضع الولادة .

وقال آخر : يحنُّ اللبيب إلى وطنه ، كما يحنُّ النَّجيبُ إلى عَطَنه[1] .

وقال : كما أنَّ لحاضنتك حقَّ لبنها ، كذلك لأرضك حرمة وطنها .

وذكر أعرابىٌّ بلدةً فقال : رملةٌ كنتُ جَنينَ رُكامها ، ورضيعَ غمامها، فحضنتنى أحشاؤها ، وأرضعتنى أحساؤها[2] .

وشبَّهت الحكماء الغريب باليتيم اللَّطيم الذى ثَكِلَ أبَويه ، فلا أمَّ ترأمه ، ولا أبَ يَحدِب عليه .

وقالت أعرابية : إذا كنت فى غير أهلك فلا تنسَ نصيبك من الذل .

وقال الشاعر[3] :

لَعَمرِى لَرهطُ المرءِ خيرٌ بقيَّةً	عليه وإن عالَوْا به كلَّ مركبِ[4]
إذا كنتَ فى قومٍ عِدًى لستَ منهمُ	فكُلْ ما عُلِفتَ من خبيثٍ وطيِّبِ

---

(١) النجيب من الإبل : الكريم العتيق .

(٢) الأحساء : جمع حسى بالكسر ، وهو سهل من الأرض يستنقع فيه الماء .

(٣) هو خالد بن نضلة ، كما فى الحيوان ٣ : ١٠٣ والبيان ٣ : ٢٥٠ . والشعر فى الحماسة بشرح المرزوقى ٣٥٨ بدون نسبة .

(٤) أى أركبوه المراكب الصعبة المكروهة . وبين البيت وتاليه فى الحيوان والحماسة .

من الجانب الأقصى وإن كان ذا ندى	كثير ولا ينبيك مثل المجرب

وفى المثل : «أوضَحُ من مرآة الغَريبة»[1] . وذلك أن المرأة إذا كانت هديًا فى غير أهلها[2] ، تتفقَّد من وجهها وهيئتها ما لا تتفقَّده وهى فى قومها وأقاربها ، فتكون مرآتُها مجلوَّةً تتعهَّد بها أمرَ نفسها . وقال ذو الرمّة :

لها أذنٌ حَشْرٌ وذِفرَى أسيلةٌ وخدٌّ كمِرآة الغَريبةِ أسجَح[3]

وكانت العرب إذا غزتْ وسافرتْ حملتْ معها من تُربةِ بلدها رملاً وعَفَرًا تستنشقه عند نَزْلةٍ أو زكام أو صُداع . وأنشِد لبعض بنى ضبَّة :

نسيرُ على علمٍ بكُنهِ مسيرِنا وعُدّةِ زاد فى بقايا المزاود

ونَحمل فى الأسفار ماء قَبيصةٍ من المنشأ النائى لحبِّ المراودِ

وقال آخر : أرضُ الرَّجل أوضحُ نسبه ، وأهله أحضَرُ نَشَبه .

وقيل لأعرابي : كيف تصنع فى البادية إذا اشتدَّ القيظُ وانتعل كلُّ شيء ظلَّه ؟ قال : وهل العيش إلا ذاك ، يَمشى أحُدنا ميلاً فيرفَضُّ عَرقًا، ثم ينصِب عصاه ويلقى عليها كساءه ، ويجلس فى فيئه يكتال الرِّيح، فكأنَّه فى إيوان كسرى ! .

---

(١) مجمع الأمثال ٢ : ٣٠٤ .

(٢) الهدى : العروس تهدى إلى زوجها .

(٣) ديوان ذى الرمة ٨٨ والكامل ٥ واللسان والمقاييس (سجح) . والأسجح : الحسن المعتدل . والبيت فى صفة ناقة . ويروى : «وخد» .

وقيل لأعرابي : ما أصبركم على البدو ؟ قال : كيف لا يصبر مَن وِطاؤه الأرض ، وغِطاؤه السماء ، وطعامُه الشَّمس ، وشرابه الريح ! والله لقد خرجنا فى إثر قومٍ قد تقدَّمونا بمراحلَ ونحن حُفاة ، والشَّمس فى قُلَّة السماء ، حيث انتعل كلُّ شيءٍ ظِلَّه ، وأنَّهم لأسوأُ حالاً منَّا ، إنَّ مِهادهم للعفَر ، وإنَّ وِسادهم لَلْحَجَر ، وإنَّ شِعارهم لَلهواء ، وإنَّ دِثارهم للخواء[1] .

وحدَّثنى التوَزى[2] عن رجلٍ من عُرينة قال : حدَّثنى رجلٌ من بنى هاشمٍ قال : قلتُ لأعرابيٍ من بنى أسد : مِن أينَ أقبلت ؟ قال : من هذه البادية . قلت : وأين تسكنُ منها ؟ قال : مَساقط الحَمى حِمَى ضريَّة[3] ، بها لَعمر الله ما نُريد بدَلاً ، ولا نبغى عنها حوَلاً[4] ، أمَّا الفَلَوَات ، فلا يَملَوْلح ماؤها[5] ، ولا يَحمَى ترابُها ، ولا يُمعِرُ جنابُها[6] ، ليس فيها أذًى ولا قَذًى ، ولا أنينٌ ولا حُمًّى[7] ؛ فنحنُ بأرفهِ عيشٍ وأرفغِ

---

(١) الخواء : الهواء بين السماء والأرض .

(٢) التوزى ، بتشديد الواو : نسبة إلى توز . ويقال فيها أيضاً توج ، بلدة بفارس . وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون . تلميذ أبى عبيدة والأصمعى توفى سنة ٢٣٣ . بغية الوعاة وإنباء الرواة ٢ : ١٢٦ .

(٣) حمى ضرية : قرية فى طريق مكة من البصرة . .

(٤) فى معجم البلدان (ضرية) : «بأرض لعمر الله ما نريد بها بدلاً عنها ولا حولا» .

(٥) فى معجم البلدان : «قد نفحتها الغدوات ، وحفتها الفلوات ، فلا يملولح ترابه» .

(٦) أمعرت الأرض : لم يك فيها نبات . وأرض معرة ، إذا انجرد نبتها .

(٧) فى معجم البلدان : «ولا عك ولا موم ولا حمى» .

نَعْمه[1] ! قلت : فما طعامكم فيها ؟ قال : بخٍ بخ ! عيشُنا والله عيشٌ تعلَّل جادبه[2] ، وطعامُنا أطيب طعامٍ وأهنؤه : الهَبِيد[3] والضِّباب واليرابيع ، والقنافذ والحيَّات ، وربَّما والله أكلْنا القَدّ[4] ، واشتوينا الجلْد، فلا نعلم أحدًا أخصبَ منا عيشًا ، فالحمدُ لله على ما بَسَط من السَّعة ، ورَزَق من الدَّعة ، أو ما سمعتَ قول قائلنا - وكان والله عالمًا بلذيذ العيش:

إذا ما أَصَبْنا كلَّ يوم مُذَيقةً ... وخمسَ تُميراتٍ صغارٍ كنائز[5]

فنحنُ ملوكُ الأرض خِصبًا ونَعْمةً ... ونحن أسودُ الغاب عند الهَزاهزِ[6]

وكم متمنٍّ عَيْشَنَا لا يناله ... ولو ناله أضحى به حَقَّ فائزِ

---

(١) رفغ عيشه بالضم رفاغة : اتسع . والرفاغة والرفاغية : سعة العيش والخصب .

(٢) الجادب : العائب . تعلل : لم يجد مقالاً . قال ذو الرُّمَّة :

فيالك من خد أسيل ومنطق ... رخيم ومن خلق تعلل جادبه

ديوانه ٤٣ واللسان (جدب) .

(٣) الهبيد : حب الحنظل ، تنقعه الأعراب فى الماء أياماً ، ثم يطبخ ويؤكل .

(٤) القد ، بفتح القاف : جلد السخلة . وفى اللسان : «وفى حديث عمر رضى الله عنه : كانوا يأكلون القد . يريد جلد السخلة فى الجدب» .

(٥) المذيقة : تصغير المذقة بالفتح ، وهى الشربة من اللبن الممذوق بالماء والكنائز : جمع كنيز ، وهو التمر يكتز للشتاء فى قواصر وأوعية .

(٦) الهزاهز : الفتن يهتز فيها الناس .

ولهذا خبر طويلٌ وصفَ فيه نُوقًا أَضَلَّها ، واقتصرنا منه على ما وصف من قناعته بوطنه .

قال الهاشمى : فلمَّا فرغَ من نعته قلت له : هل لك فى الغَدَاء ؟ قال: إنّي والله غاوي إغباب[1] ، لاصقُ القلب بالحجاب ، مالى عَهدٌ بمَضَاغٍ إلا شِلو يربوع وجَد معمعمةٌ منى فانسلَت[2] ، فأخذت منه بنافقائه وقاصعائه ودامَّائه وراهطائه[3] ، ثم تَنَفَّقْتُه[4] فأخرجته ، ولا والله مافرحتُ بشىء فرحى به ، فتلَّقانى رُوَيعٍ ببطن الخَرْجاء[5] ، يُوقد نُويرةً تخبو طَورًا وتسمو[6] أخرى ، فدَسَسْتُه فى إرَته[7] فخمدتْ نُويرتُه ، ولا والله ما بلغ نُضجَه حتَّى اختلسَ الرُّويعى منه ، فغَلبنى على رأسه وجَوْشه[8] ، وصدره وبدنه ، وبقى بيدى رجلاه ووركاه ، وفقرتان من صُلبه، فكان ذلك ممَّا

---

(١) الغاوى : الجائع الخالى الجوف . والإغباب : مصدر أغب ، والمراد ترك الاكل يوماً ، كالإغباب فى الزيارة .

(٢) المضاغ ، بالفتح : ما يمضغ . والشلو بالكسر : العضو ، والقطعة من اللحم . والمعمعمة : الدمشقة ، وهى عمل فى عجلة .

(٣) كل هذه أسماء خاصة لجحرة اليربوع . انظر الحيوان ٥ : ٢٧٦ ، ٤٤٧ .

(٤) تنفق اليربوع وانتفقه : استخرجه من نافقائه .

(٥) رويع : مصغر راع . والخرجاء : موضع بين مكة والبصرة وفي الأصل والتيمورية: «الجرما» .

(٦) النويرة : مصغر النار . تسمو : ترتفع وتشتعل .

(٧) الإرة : موضع النار .

(٨) الجوش ، بفتح الجيم : الصدر والوسط ، مثل الجؤشوش .

أنعمَ الله به عليَّ ، فاغتـبقتُها على نكْظٍ مُنْكِظ[1] ، وبَوْصٍ بائص[2] عن عراكه إيّاى ، غير أنَّ الله أعانني عليه . فذلك والله عهدى بالطّعام ، وإني لذو حاجةٍ إلى غِذاء أنوِّه به فؤادى[3] ، وأشُدُّ به آدى[4] ، فقد والله بلغ مني المجهود ، وأدرك منّي المجلود[5] .

يصف هذا البـؤس والجهـد ، ويتحمّـل هذه الفاقـة ، ويصبـر على الفقر، قناعةً بوطنه ، وحبًّا لعطنه ، واعتداداً بما وصف من رفاغة عيشهِ .

وحدَّثنا سليمان بن معبد[6] ، أنَّ الوليد بن عـبد الملك أراد أن يُرسل خيله ، فجـاء أعرابيٌّ له بفرسٍ أنثى ، فسأله أن يُدخلَها مع خـيله ، فقال الوليد لقهـرمانه أُسَيْلِمَ بن الأحنف : كيف تراها يا أسيلم ؟ فقـال يا أمير المؤمنين ، حجـازيّة ، لو ضمَّها مـضمارك ذهبت : قـال الأعرابى : أنت والله منقوص الاسـم ، أعوج اسم الأب[7] ! فأمر الوليـدُ بإدخال فرسهِ ،

(١) النكظ والإنكاظ : الإعجال .

(٢) البوص : البعد والبائص : البعيد .

(٣) التنويه : الرفع والتقوية .

(٤) الآد : الصلب .

(٥) المجلود : مصدر من الجلد ، بمعنى الشدة والقوة والصبر . ومثله المحلوف والمعقول بمعنى الحلف والعقل .

(٦) سليـمـان بن مـعبـد ، أبو داود السـنجى النـحوى . روى عن النـضر بن شـمـيل والأصمعى والهيثم بن عدى وغيرهم ، وعنه مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم . وكان ثقة . توفى سنة ٢٥٧ .

(٧) منقوص الاسم ، عنى بـه أنه مصغر أسـلم ، أعوج اسم الأب ، لأن الأحنف هو الأعوج الرجل .

فلمّا أجريت الخيلُ سبَق الأعـرابىُّ على فرسه ، فقـال الوليد : أوَاهبُها لى أنتَ يا أعـرابىّ ؟ فقال : لا والله ، إنّهـا لقديمةُ الـصُّحبة ، ولهـا حقّ ، ولكن أحملُك على مُهـرٍ لها سبَق عاماً أوّلَ وهو رابضٌ ، فضـحك الوليدُ وقال : أعـرابىّ مجنون ! فقال : ومـا يضحككم ؟ سبقَتْ أمُّه عـاماً أوّل وهو فى بطنهـا ! فاستظرفـه واحتبسه عنده فـمرضَ ، فَبَعثَ إليـه الوليدُ بالأطبّاء ، فأنشأ يقول :

جـاء الأطبَّاءِ من حِمصٍ تـخـالهم   من جـهلهم أن أُداوَى كـالمجـانينِ

قال الأطبَّاءُ: مـا يَشْفيكَ؟ قلت لهم   شمُّ الدُّخانِ من التسرير يَشفينى[1]

إنِّى أَحِنُّ إلى أدخــان مُحــتطَبٍ   من الجُنينة جـزلٍ غـير مـوزونِ[2]

فأمر الوليد أن يُحمل إليه من رمثِ سليخةٍ[3] ، فوافَوه وقد مات .

فهـو عند الخليفة ، وببلدٍ ليس فى الأقـاليم أريَفُ منه ، ولا أخصبُ جَنابًا ، فحنَّ إلى سَليخة رمثٍ ، حبًّا للوطن .

وحكى أبو عبد الله الجعفرى عن عبـد الله بن إسحاقَ الجعفرىّ قال : أمرتُ بصهـريجٍ لى فى بستانٍ ، عليه نحلٌ مُطـلٌّ (أن يُملأ) ، فذهبتُ بأمّ الحسام المرّيّة وابنتهـا - وهى زوجتى - فلمَّا نظرتْ أمُّ الحُسام إلى الصَّهريج

---

(١) التسرير : موضع من بلاد عكل .

(٢) الأدخان : جمع دخن ، بالتحريك ، وهو الدخان ، والجنينة : ثنى من التسرير ، وهو واد من ضرية ، غير موزون ، عنى أنه خفيف .

(٣) الرمث ، بالكسر : شجرة من الحمض ، والسليخة : خشبه اليابس ليس فيه مرعى

قعدتْ عليه وأرسلتْ رجليهـا فى الماء ، فقلت لها : ألا تَطُوفين معنا على هذا النَّخل ، لنجنىَ ما طاب من ثَمَرِه ؟ فقالت : ها هنا أعجبُ إلىّ فدُرنا ساعة وتركناها ، ثم انصرفنا وهى تُخضخِض رجليها فى الماء وتحرِّك شفتيها ، فقلت : يا أمّ الحُسام ، لا أحسبك إلا وقد قلتِ شعراً . قالت: أجل . ثم أنشدتنى :

أقول لأدنى صاحبىَّ أُسِرُّه ... وللعين دمعٌ يَحدِرِ الكُحلَ ساكبُه

لعمرِى لَنِهىٌ باللِّوى نازح القَذَى ... نقىُّ النواحى غير طَرْق مَشاربُه[1]

بأجرعَ مِمراعٍ كأن رِياضَه ... سِخَاب من الكافور والمسك شائبُه[2]

أحبُّ إلينا من صَهاريج مُلِّئت ... للعبِ فلم تَملُح لدىَّ ملاعبُه

فياحبّذا نجدٌ وطيبُ ترابه ... إذا هضَبَتهُ بالعشىِّ هواضِبُه[3]

وريح صبًا نجدٍ إذا ما تنسَّمتْ ... ضُحىً أوسرت جُنحَ الظلام جنائبُه[4]

وأنشد أبو النصر الأسدى[5] :

(١) الطرق : بالفتح : المطروق ، الذى تبول فيه الإبل وتبعر .

(٢) الأجرع : المكان الواسع فيه حزونة وخشونة . والممراع : من قولهم مرع الوادى : أخصب وأكلأ .

(٣) يقال هضبتهم السماء ، أى مطرتهم .

(٤) الجنائب : جمع جنوب : وهى الريح التى تقابل ريح الشمال .

(٥) الشعر فى ديوان المعانى ٢ : ١٨٩ لأحمد بن إسحاق الموصلى .

أحبُّ الأرض نسكنُها سليمى		وإن كانت توارثها الجُدوب[1]

وما دهرى بحبٍّ تراب أرضٍ		ولكن من يحلُّ بها حبيب[2]

وأنشدنى حمَّاد بن إسحاق الموصلى :

أحب بلاد الله ما بين صارةٍ		إلى غطفانَ منّى إذْ يصوب سحابُها[3]

بلاد بها نيطت علىَّ تمائمى		وأول أرضٍ قسَّ جلدى ترابُها

قال : ولمّا حُملت نائلة بنتُ الفرافصة[4] الكلبية إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، كرهتْ فراق أهلها ، فقالت لضبٍّ أخيها :

ألستَ ترى بالله يا ضَبُّ أننى		مرافقةٌ نحوَ المدينةِ أركُبا[5]

أما كان فى أولاد عوف بن عامرٍ		لكَ الويل ما يُغنى الخباء المطنَّبا

أبَى اللهُ إلاّ أن أكون غريبةً		بيثربَ لا أمّاً لدىَّ ولا أبا

---

(١) الجدوب : جمع جدب .

(٢) يقال ما دهرى بكذا وما دهرى كذا ، أى همى وإرادتى وعادتى .

(٣) معجم البلدان (منعج) ومحاضرات الراغب ٢ : ٢١٦ وزهر الآداب ٦٨٢ والقالى ١ : ٨٣ . وصارة : جبل فى ديار بنى أسد : ورواية سائر المصادر :

أحب بلاد الله ما بين منعج		إلى وسلمى أن يصوب سحابها

(٤) فى اللسان : «كل ما فى العرب فرافصه بضم الفاء ، إلا فرافصه أبا نائلة امرأة عثمان رحمه الله . بفتح الفاء لا غير » .

(٥) الأركب : جمع ركب .

قـال : وزُوِّجت من أبان[1] فى كلبٍ امـرأةٌ ، فـنظرتْ ذات يومٍ إلى ناقةٍ قد حنَّت فذكرتْ بلادَها وأنشأتْ تقول :

ألا أيُّهــــا البكْرُ الأبـانىُّ إنّنـى ... وإياكَ فـى كلبٍ لـمغـتـــربان

تحنُّ وأبكى ذا الـهـوى لصـبـابةٍ ... وإنَّا على الـبَلوَى لمصطحـبـانِ

وإنَّ زمـانًا أيّهــا البكرُ ضــمَّنى ... وإيّاكَ فى كـلبٍ لـشَرُّ زمـــانِ

وقال آخر :

ألاَ يـا حـــبَذا وطنـى وأهلـى ... وصَحْبى حـين يُذَّكَرُ الصِّحــابُ

ومـــا عَسَلٌ ببـــارد مــاءِ مُزنٍ ... علـى ظمــأٍ لـشــاربه يُشـــابُ

بأشـــهَى من لـقــائكمُ إليـنا ... فكـيف لنا بـه ، ومـــتَى الإيابُ

وأنشد الغنوىُّ لبعض الهذليين[2] :

وأرى البـلادَ إذا سكنـتِ بغـيـرها ... جَدبًا وإن كــانت تُطَلُّ وتُجنب[3]

وأرى العـــدوَّ يحــبُّكم فـأحــبُّه ... إن كــان يُنسَب منك أو يَتَنَسَّبُ[4]

---

(١) هم أبان بن دارم بن حنـظلة بن مـالك بن زيد مناة بن تميم . وفى حـمـاسـة ابن الشجرى ١٧٣ : «من بنى مازن» .

(٢) هو أبو ذؤيب الهذلى .

(٣) تطل : يصيبها الطل . تجنب : تصيبها الجنوب . ومع الجنوب خير وتلقيح . وفى الديوان والشرح : «وتخصب» ، بالبناء للمفعول والفاعل .

(٤) وكذا فى الديوان . وفى شرح الديوان : «منك أو لا ينسب» .

قال : ومن هذا أخَذ الطائيُّ قوله :

كم منزلٍ فى الأرض يـألفُه الفـتى وحـنـيـنُه أبـداً لأولِ مـنـزلِ[1]

وأنشد أبو عمر البَجَلى :

تَمَتّعْ من شـمـيـم عَرارِ نجـدِ فـمـا بعـد العـشيّةِ من عَرارِ[2]

ألا يا حـبَّذا نَفَحـاتُ نجـدِ وريًّا روضِه غِبَّ الـقِطـارِ

وعـيـشك إذْ يحُلُّ القـومُ نجـداً وأنت علـى زمـانك غَيـر زارِ

شـهـورٌ ينقـضينَ ومـا شَعَرنا بـأنصـافٍ لهـنَّ ولا سِرارِ

فـأمّا لـيلـهـنَّ فَخَيْرُ ليـلٍ وأقـصـر مـا يكون من النَّهَارِ[3]

---

(١) ديوان أبي تمام ٤٥٧ من أبيات أربعة وأخبار أبي تمام للصولى ٢٦٢ . وذكر الصولى عن محمد بن داود أنه مأخوذ من قول ابن الطثرية :

أتانى هواها قبل أن أعـرف الهوى فـصـادف قلبـاً خـاليـاً فـتـمكنا

وقال : وهو عندى بقول كثير أشبه :

إذا وصلـتـنـا خلـة لـتـزيلهـا أبينا وقـلنا : الحـاجـبـيـة أول

(٢) للصـمة بن عـبد الله القـشيـرى . الحمـاسة ١٢٤٠ بشرح المرزوقى . والـعرار : كسحاب: بقلة صفراء ناعمة طيبة الريح ، الواحدة عرارة .

(٣) معجم البلدان :

تقـاصـر لـيـلهن فـخـيـر ليل وأطيب مـا يكون من النهـار .

وقال آخر[1] :

ألا هل إلى شمِّ الخُزامَى ونظرةٍ ... إلى قَرقَرَى قبل المماتِ سبيل

فأشربَ مِن ماء الحجَيلاء شربةً ... يُداوَى بها قبلَ المَماتِ عليل[2]

فيا أثَلاثِ القاع ، قلبى موكّلٌ ... بكنّ وجدوى خيرِكنّ قليلُ

ويا أثلاثِ القاع قد ملَّ صُحبتى ... مَسيرِى فهل فى ظِلّكنّ مَقيلُ

أريدُ انحداراً نحوها فيردُّنى ... ويمنعنى دَينٌ علىَّ ثقيل[3]

أحدِّث نفسى عنكِ إذْ لستُ راجعًا ... إليك ، فحزنى فى الفؤادِ دخيلُ

وأنشد للمجنون :

إلى عامرٍ أصبو ، وما أرضُ عامرٍ ... هى الرَّملةُ الوعساء والبلد الرَّحب[4]

معاشِر بيضٌ لو وردتَ بلادَهم ... وردتَ بُحوراً ماؤها للنَّدى عذبُ

---

(1) هو يحيى بن طالب الحنفى كما فى الأغانى ٢٠ : ١٤٩ ، ١٥٠ عند ترجمته وذكر أنه من شعراء الدولة العباسية . وكذا نسب فى معجم البلدان (القاع ، قرقرى ، الحجيلاء) وأمالى القالى ١ : ١٢٣ .

(2) الحجيلاء : بئر باليمامة .

(3) كان قد خرج إلى مدينة الرى هربًا من دين ثقيل عليه. ويذكر أبو الفرج أن الرشيد غنى هذا الشعر فسأل عن قائله ، فلما علم بقصته كتب إلى عامله بالرى بقضاء دينه وإعطاء نفقة. وإنفاذه إليه على البريد، فوصل الكتاب يوم مات يحيى بن طالب .

(4) الوعساء : السهلة اللينة .

إذا مــا بدا للنــاظرين خـيــامُهم فثَمَّ العِتاقُ القُبُّ والأسَل القَضْبُ[1]

وأنشدنا المازنى [2] :

اقرأ على الوَشَلِ السَّلامَ وقل له : كلُّ الموارد مُذ هُجِـرتَ ذميم[3]

جَبَل يُنيف علـى الجبــال إذا بدا بين الغــدائر والرِّمــال مــقـيم

تسـرى الصَّبـا فتبـيتُ فى ألواده ويبـيت فيـه من الجنوب نسـيم[4]

سَقـيًا لظلِّكَ بالعـشىِّ وبالضُّحى ولبـرد مـائك َ والمياهُ حـمـيمُ

لو كنت أملك برد مـائك لم يذقْ ما فـى قلاتكَ ما حـييتُ لئـيم[5]

وقالت امرأةٌ من عقيل :

خليلىَّ من سـكان مـاوانَ هاجنى هبوبُ الجَنُوبِ مرُّها وابتِسـامها[6]

فـلا تـسَألانى مـا ورائى فـإنَّنى بمنزلةٍ أعــيـا الطبـيبَ سَقــامُهـا

---

(١) القب : الضوامر . والأسل : الرماح . والقضب من الشـجر ، كل شجر سبطت أغصانه وطالت .

(٢) المازنى ، هو أبو عثمان بكر بن محمد بن بقـية ، روى عن أبى عبيدة والأصمعى وأبى زيد ، وعنه المبرد وجماعة . توفى سنة ٢٣٠ وقيل ٢٤٩ أو ٢٤٨ .

(٣) لأبى القمقام القلات الأسدى فى الحماسة ١٣٧٧ بشرح المرزوقى .

(٤) الألواذ : المنعطفات والنواحى ، واحدها لوذ .

(٥) القلات جمع قلت ، وهى حفرة فى الجبل يستنقع فيها ماء المطر .

(٦) لعلها قصدت إبتسام سحاب الجنوب عن البرق .

وقال آخر :

ألا ليتَ شعرى والحوادثُ جَمّةٌ … متى تجمعُ الأيامُ يومًا لنا الشّملا

وكلُّ غريبٍ سوف يُمسِى بذِلَّةٍ … إذا بانَ عن أوطانه وجفا الأهلا

وقال آخر :

ألا ليتَ شعرى يجمعُ الشَّملُ بيننا … بصحراء من نجرانَ ذاتِ ثرىً جعدِ

وهل تَنْفُضَنَّ الرِّيحُ أفنانَ لِمّتى … على لاحقِ الرِّجلين مضطمرٍ وَرِدِ(1)

وهل أردنَّ الدَّهرَ حِسْىَ مُزاحمٍ … وقد ضربتْه نفحةٌ من صَبا نَجْدِ

وقال آخر

وأنزلنى طولُ النَّوى دارَ غَرْبةٍ … إذا شئتُ لاقيتُ أمرأً لا أشاكلُه(2)

فحامقتُه حتَّى يقالُ سجيّةٌ … ولو كان ذا عقلٍ لكنتُ أعاقلُه

ولو كنتُ فى قومى وجُلُّ عشيرتى … لألفَيت فيهم كلّ خِرقٍ أواصله

وأنشِد لذى الرمة :

إذا هبَّت الأرواحُ من نحو جانبٍ … به أهلُ مىٍّ هاجَ قلبى هبوبُها

هوًى تَذرِف العينانِ منه ، وإنما … هوى كلِّ أرض حيث حلّ حبيبُها

---

(1) اللاحق : الضامر . وفى ديوان المعانى : «لاحق الإطلين» ، وهو الأمثل والإطل : الخاصرة . والمضطمر : المضامر .

(2) الغربة ، بالفتح : النوى والبعد ؛ وبالضم : الإغتراب .

وقال أبو عثمان:

رأيت عبداً أسود حبشيًا لبنى أسيد قدم من شقّ اليمامة فصار ناظوراً[1] ، وكان وحشيًا مجنونًا لطول الغُربة مع الإبل ، وكان لا يلقى إلاّ الأكَرةَ ، فلا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامَهم ، فلمَّا رآنى سكن إلىّ ، وسمعتُه يقول : لعن الله أرضًا ليس بها عَرَب ، قاتل الله الشاعرَ حيث يقول :

* حرُّ الثرى مُستعرب التُّرابِ *

أبا عثمان ، إنَّ هذه العُرَيبَ فى جميع الناس كمقدار القُرحة فى جِلْد الفرس ، فلولا أنَّ الله رقَّ عليهم فجعلهم فى حَشاة[2] لطمست هذه العجم آثارهم . أترى الأعيار إذا رأت العِتاقَ لا تَرى لها فضلاً ! والله ما أمر اللهُ نبيَّه ﷺ بقتلهم ، إذْ لا يدينون بدينٍ ، إلاّ لضنِّه بهم ، ولا تَرَكَ قَبولَ الجزية منهم إلاّ تنزيهًا لهم .

وقيل لأعرابىٍّ : ما السرّور ؟ فقال : أوبةٌ بغير خيبة ، وألفةٌ بعد غيبة

وقيل لآخر : ما السُّرور ؟ قال : غيبةٌ تُفيد غنًى ، وأوبةٌ تُعقِب مُنىً ، وأنشأ يقول :

---

(١) الناظور للزرع والنخل وغيرهما : حافظه ، وهو بالطاء المعجمة من لغة أهل السواد ، قال بعضهم : وليست بعربية محضة .

(٢) يقال أرض حشاة : سوداء لا خير فيها ، أو أرض قليلة الخير . .

وكنت فيهم كممطورٍ ببلدته ... يُسَرُّ أن جَمع الأوطانَ والمطرا

وأحسن ما سمعنا فى حبِّ الوطن وفَرحة الأوبة قوله[1] :

وباسَرتها فاستعجلتْ عن قِناعِها ... وقد يستخفُّ (الطامعين) المُياسر

مشمَّرة عن ساق خَدلاء حُرَّة ... تُجارى بنيها مرّةً وتُحاضِر[2]

وخبَّرها الرُّوَّاد أن ليس بينها ... وبين قُرى نجرانَ والدَّربِ صافرُ[3]

فألقت عصاها واستقرَّت بها النوى ... كما قَرَّ عينًا بالإياب المسافرُ[4]

وقيل لبعض الأعراب : ما الغبطة ؟ قال : الكفاية مع لزوم الأوطان، والجلوسُ مع الإخوان . قيل : فما الذِّلَّة ؟ قال : التنقُّل فى البلدان ، والتنحِّى عن الأوطان .

وقال آخر :

طلب المعاشِ مفرِّقٌ ... بين الأحبَّة والوطنْ

ومصيِّرٌ جَلْدَ الرجا ... ل إلى الضَّراعة والوهَن

حتَّى يُقادَ كما يُقا ... دُ النِّضو فى ثِنْى الرَّسَنْ

---

(١) هو عبد ربه السلمى ، أو سليم بن ثمامة الحنفى ، أو معقر بن حمار البارقى ، كما فى اللسان (عصا) .

(٢) الخدلاء : الممتلئة الساق .

(٣) الرواد : جمع رائد .

(٤) يضرب مثلاً لكل من وافقه شىء فأقام عليه .

ثـم المنـيَّةُ بعـــــدهُ فـكـأنـه مـــــا لـم يـكَنْ

ووجدنا من العرب : مَن قد كان أشرفَ على نفسه ، وأفخر فى حسبه ؛ ومن العَجم : من كان أطيب عنصراً وأنفسَ جوهراً - أشدَّ حنيناً إلى وطنه ، ونزاعًا إلى تربته .

وكانت الملوك على قديم الدَّهر لا تؤثر على أوطانها شيئًا .

وحكى المويَذ[1] أنَّه قرأ فى سيرة إسْفَنْديار بن يستاسف بن لُهْراسف، بالفارسيَّة ، ، أنّه لما غزا بلادَ الخزر ليستنقذ أختَه من الأسر ، اعتلَّ بها ، فقيل له : ما تشتهى ؟ قال : شَمَّةٌ من تُربة بلخ ، وشَربةٌ من ماء واديها .

واعتلَّ سابور ذو الأكتاف[2] بالرُّوم ، وكان مأسورًا فى القدّ ، فقالت له بنت ملك الرُّوم وقد عشقته : ما تشتهى مما كان فيه غذاؤك ؟ قال : شَربةٌ من ماء دِجْلة ، وشَمَّةٌ من تربة إصطخر ! فغبرت عنه أيّامًا ثم أتته يومًا بماءِ الفرات ، وقَبضةٌ من تراب شاطئه ، وقالت : هذا من ماء دِجلة، وهذه من تربة أرضك ، فشرب واشتمَّ من تلك التُّربة فنَقَه من مرضِه[3].

(١) الموبذ : قاضى للمجوس ، ورئيس الكهنة . فارسى معرب .

(٢) هو التاسع من ملوك الفرس الساسانية ، وهو سابور بن هرمز بن نرسى ابن بهرام . ذكر المسعودى فى التنبيه ٨٨ أنه ملك ٧٣ سنة ، وهو غير سابور بن أردشير بن بابك فإن هذا هو الثانى من ملوك الساسانية .

(٣) نقه من مرضه ، برىء ولا يزال به ضعف .

وكان الإسكندرُ الرُّوميّ جال فى البُلدان[1] وأخْرَبَ إقليم بابل ، وكنز الكنوزَ وأبادَ الخَلْق ، فـمرِض بَحـضُرة بابل[2] ، فلمـا أشـفَى أوصى إلى حكمائه ووزرائه أن تحمل رِمَّته فى تابوتٍ من ذهبٍ إلى بلده ؛ حبًّا للوطن .

ولَمَّا افتتح وَهرز بن شير زاد بن بهرام جور اليمن ، وقتل ملك الحبشة المتغلب - كان - على الـيمن ، أقام بها عامـلاً لأنو شِروان ، فبنى نجران اليمن - وهى من أحصن مدن الثغور - فـلمّا أدركته الوفاةُ أوصى ابنه شير زاذ أن يحمل إلى إصطخر ناوسَ أبيه ، ففعل به ذلك .

فهـؤلاء الملوك الجبـابرة الذين لم يفتـقدوا فى إغـترابهم نعـمة ، ولا غادروا فى أسفارهم شـهوة ، حنُّوا إلى أوطانهم ، ولم يؤثروا على تُربهم ومساقط رءوسهم شيئاً من الأقاليم المستفادة بالتغازى[3] والمدن المغتصبة من ملوك الأمم .

وهؤلاء الأعـراب مع فاقـتهم وشـدّة فقـرهم يحنُّون إلى أوطانهم ، ويقنعون بتُربهم ومحالِّهم .

ورأيت المتأدِّب من البرامكة المتفلسف منهم ، إذا سافر سفراً أخذ معه من تربة مولده فى جرابٍ يتداوى به .

---

(1) جال فعل لازم .

(2) الحضرة : قرب الشىء ، يقال كنا بحضرة ماء ، أى عنده .

(3) التغازى : تفاعل من الغزو ، وإن لم تصرح به المعاجم .

ومن أصـدق الشواهد فى حبِّ الوطـن أن يوسف عليه السـلام ، لمّا أدركته الوفـاة أوصَى أن تُحملَ رِمّته إلى موضـع مقابر أبيه وجـدِّه يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام .

وروى لنا أنَّ أهل مِصر منعوا أولياء يوسف من حمله ، فلمَّا بعث الله موسى عليـه السلام وأهلك على يديه فرعَون وغيـره من الأمم ، أمره أن يحمل رِمَّته إلى تربة يعقوب بالـشَّام ، وقبره عَلَمٌ بأرض بيت المقدس بقرية تسمَّى حسامى[1] .

وكذلك يعقوب ، مات بمصـر فحملت رِمّته إلى إيلياء[2] ، قرية بيت المقدس ، وهناك قبر إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام .

ومن حبِّ الناس لـلوطن ، وقناعـتـهم بالعطـن ، أنّ إبراهيم لمّا أتى بهـاجَر أمِّ إسمـاعيـل مكّة فأسكنهـا ، وليس بمكّة أنيسٌ ولا مـاء ، ظمئ

---

(١) المقـصود : «حِسـمَى» . وفى معـجم البلدان أنهـا أرض بين أيلة وجانب تيـه بنى إسرائيل . وفى التكوين ٥ : ٢٦ : «ثم مات يوسف وهو ابن مائة وعشر سنين ، فـحنطوه ووضع فى تابوت فى مـصر» . لكن فى الطبـرى ١ : ١٨٧ : «وأوصى يوسف أن يحمل جسـده حتى يدفن إلى جنب آبائه ، فـحمل موسى تابوت جسده عند خروجه من مصر» .

(٢) فى التكوين ٥٠ : ٥ قـول يوسف : «أبى استـخلفنى قائلاً : ها أنا أمـوت ، فى قبرى الذى حـفرته لنفسى فى أرض كنعان هناك تدفننى . فـالآن أصعد لأدفن أبى وأرجـع». وفى الطبرى ١ : ١٨٧ عـند الكلام على يعقوب أنه «تـقدم إلى يوسف عند وفاته أن يحمل جسده حتى يدفنه بـجنب أبيه إسحاق ، ففعل يوسف ذلك به ومضى به حتى دفنه بالشام ثم انصرف» .

إسماعيل فدعا إبراهيمُ ربَّه فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾[1] ، أجابَ الله دعاءه إذ رضى به وطنًا ، وبعث جبريل عليه السلام فركض موضع زمزم برجله ، فنبع منه زمزم .

ومرّ بإسماعيل وأمّه فرقةٌ من جُرهم ، فقالوا : أتأذنون لنا أن ننزل معكم ؟ فقالت هاجر : نَعمْ ولا حقَّ لكم فى الماء ، فصار إسماعيل وولدُه قَطَّانَ مكةَ ، لدعوة إبراهيم عليهما السلام .

نعم ، وهى مع جدوبتها خير بقاع الأرض ، إذ صارت حرمًا ، ولإسماعيل وولده مَسكنًا ، وللأنبياء مَنسِكًا ومجمعًا على غابر الدَّهر .

ومِمَّن تمسَّك من بنى إسرائيل عليه السلام بحبِّ الأوطان خاصَّةً ، ولدُ هارون ، وآلُ داود ؛ لم يمت منهم ميِّت فى إقليم بابل فى أىِّ البُلدان مات ، إلاَّ نبشُوا قبرَه بعد حول ، وحملت رِمَّته إلى موضع يدعى الحصاصة بالشَّام فيُودَعُ هناك حولاً ، فإذا حال الحولُ نُقِلت إلى بيت المقدس .

وقال الفرزدق[2] :

لَكِسرى كان أعقلَ من تميم ... ليالىَ فرَّ من بلد الضِّبابِ

فأسكنَ أهلَه ببلادِ ريفٍ ... وجنَّاتٍ وأنهارٍ عِذابِ

---

(١) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم .

(٢) نسب الشعر فى الحيوان ١ : ٢٥٦ إلى أبى ذباب السعدى ، وفى ٦ : ١٠١ إلى التميمى .

فصار بنُو بنيه بها مُلوكًا وصِرْنا نحن أمثالَ الكلاب
فلا رحِم الإلهُ صَدى تميمٍ فقد أزرَى بنَا فى كلّ بابِ

وقال آخر فى حبّ الوطن :

سقى الله أرضَ العاشقين بِغَيْثِه وردَّ إلى الأوطان كلَّ غَريبِ
وأعطَى ذَوِى الهيئاتِ فوقَ مُناهمُ ومتّع محبوباً بقرب حبيبِ

تمت الرسالة فى الحنين إلى الأوطان من كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله ومنّه ، وبتمامها تم جميع الجزء من كلامه .

* * *

من رسائل الجاحظ

(٢)

رسالة
الأوطان والبلدان

تحقيق وشرح

عبد السلام هارون

١ - فصل

من صدر كتابه فى الأوطان والبلدان

زيْنكَ الله بالتَّقْوى ، وكـفاك المهـمَّ من أمر الآخـرة والأولى ، وأثلج صَدرَك باليـقين ، وأعـزَّك بالقناعـة ، وختَم لك بالسَّعـادَة ، وجَعَلك من الشاكرين .

سألتَ - أبقاك الله - أن أكتب لك كتاباً فى تفاضُل البُلدان ، وكيف قناعـةُ النَّفسِ بالأوطان ، ومـا فى لزومهـا من الفَشَل والنَّقض ، ومـا فى الطَّلب من علم التَّجارب والعقل .

وذكرتَ أنَّ طُول المُقام من أسـباب الفقر ، كما أنَّ الحركـة من أسباب اليُسْر ، وذكرتَ قول القائل : «الناس بأزمانِهم أشبَهُ منهم بآبائهم» .

ونسيتَ ـ أبقاكَ الله - عملَ البُلدان ، وتصرُّف الأزمان ، وآثارهما فى الصُّوَر والأخلاق ، وفى الشـمائل والآداب ، وفى اللُّغـات والشَّهوات ، وفى الهمم والهَيْئات ، وفى المكاسِبِ والصِّناعات ، على ما دبَّرَ الله تعالى من ذلك بالحكمة اللطيفة ، والتدابير العجيبة .

فسـبحانَ من جَعلَ بعضَ الاختـلافِ سبيـاً للإئتلاف ، وجعل الشكَّ داعيـةً إلى اليقين ، وسُبحـان من عرَّفنا مـا فى الحَيْرَة من الذِّلَّة ، وما فى الشَّكِّ من الوَحْشـة ، ومـا فى اليـقين من العِزِّ ، ومـا فى الإخـلاص من الأُنس .

وقلت : ابدأ لى بالشَّام ومصر ، وفضْلِ ما بينهما ، وتحصيل جمالهما ، وذكرتَ أنَّ ذلك سيجرّ العراق والحجاز ، والنجود والأغوار ، وذكرَ القُرى والأمصار ، والبراريَّ والبحار .

واعلمْ - أبقاكَ اللهُ - أنَّا متى قدَّمنا ذكر المؤخَّر وأخَّرنا ذكر المقدَّم ، فسَدَ النِّظام وذهبت المراتب . ولستُ أرى أن أقدِّم شيئاً من ذكر القرى على ذكر أمّ جميع القرى . وأولَى الأمر بنا ذكرُ خصال مكَّة ، ثمَّ خصال المدينة

ولولا ما يجبُ من تقديم ما قدَّم اللهُ وتأخيرِ ما أخَّر لكان الغالبُ على النفوس ذكرَ الأوطانِ وموقعها من قلب الإنسان .

وقد قال الأوّل[1] : «عَمَّر اللهُ البُلدان بحبِّ الأوطان» ، وقال ابن الزُّبير : «ليس الناسُ بشيءٍ من أقسامهم أقنَعَ منهم بأوطانهم» .

(و) لولا ما منَّ الله به على كلِّ جيلٍ منهم من الترغيب فى كل ما تحت أيديهم ، وتزيينِ كلِّ ما اشتملت عليه قدرتهم ، وكان ذلك مفوَّضاً إلى العُقول ، وإلى اختيارات النُّفوس - ما سكَن أهل الغِياض والأدغال فى الغَمَق واللَّثَق[2] ، ولَمَا سكَنُوا مع البَعُوض

---

(١) هو عمر بن الخطاب كما فى رسالة الحنين إلى الأوطان ٣٨٩ ونسب هذا القول فى مناقب الترك ٦٤ إلى «العبدى» .

(٢) الغمق ، بالتحريك : الندى يورث ثقلاً ورخامة . وأرض غمقة : فسد ريحها وخم من كثرة الأنداء فصارت موبئة . واللثق : الندى والحر ، ويقال للماء والطين لثق أيضاً.

والهَمَج[1] ، ولما سكَن سُكَّان القِلاع[2] فى قلل الجبال ، ولما أقامَ أصحاب البَرارِى مع الذِّئاب والأفـاعى وحيثُ من عَزَّ بَزّ ، ولا أقـام أهلُ الأطراف فى المخاوف والتَّغرير[3] ، ولما رضِىَ أهلُ الغـيـران وبطـونِ الأودية بتلك المساكن ، ولالتمسَ الجميعَ السُّكنى فى الواسطة ، وفى بَيْضة العرب[4] ، وفى دار الأَمْن والمَنَعة . وكذلك كانت تكون أحـوالهم فى اختيار المكاسب والصناعـات وفى اختـيار الأسـماء والشَّهَوات . ولاخـتاروا الخَطيـر على الحقير، والكبيرَ على الصغير .

ألا تراهم قـد اختـاروا ما هو أقـبحُ على ما هو أحـسن من الأسمـاء والصِّناعـات ، ومن المنازلِ والـدِّيارات ، من غـيـر أن يكونوا خُدِعـوا أو استُكْرِهوا .

ولو اجتمعوا على اختيارِ ما هو أرفع ، ورَفْض ما هو أوضَعُ من اسمٍ أو كُنية ، وفى تجـارة وصناعة ، ومن شهوةٍ وهمّة ، لذهبت المعـاملات ، وبَطَل التمييـز ، ولوقع التجاذُب[5] والتغـالـب ، ثم التَّحـارُب ، ولصاروا غَرضاً للتَّفانى ، وأكلةً للبَوَار[6] .

---

(١) الهمج : ذباب صغير كالبعوض ، يسقط على وجوه الغنم والحمير .

(٢) القلاع : جمع قلعة ، وهى الحصن فى الجبل .

(٣) غرر بنفسه تغريراً : عرضها للهلكة .

(٤) بيضة العرب : موضع سلطانهم ومجتمعهم .

(٥) والتجاذب : التنازع ، مفاعلة من الجذب .

(٦) البوار : الهلاك . والأكلة ، بالضم والفتح : المأكول .

فالحمد لله أكثَرَ الحمدِ وأطيبَه على نعمه ، ما ظَهَر منها وما بطَنَ ، وما جُهِل منها وما عُلم !

ذكر الله تعالى الدِّيار فخبَّر عن موقعها من قلوبِ عباده ، فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾[1] . فسوّى بين موقع قتل أنفسهم وبين الخروج من ديارهم . وقال : ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾[2] . فسوّى بين موقع الخروج من ديارهم وبين موقع هَلاك أبنائهم .

٢ - فصل منه

فقسم الله تعالى المصالحَ بين المُقام والظَّعن ، وبين الغُربة وإلفِ الوطَن ، وبين ما هو أربحُ وأرفع ، حين جَعَلَ مجاريَ الأرزاق مع الحركة والطَّلَب . وأكثرُ ذلك ما كان مَعَ طول الإغتراب ، والبُعْدِ فى المسافة ، ليُفيدك الأمور ، فيمكن الاختبار ويحسن الاختيار .

والعقل المولود متناهى الحدود ، وعَقْل التجارب لا يُوقَف منه على حدّ . الا ترى أنّ الله لم يجعل إلف الوطن عليهم مفترضاً[3] ، وقيداً مُصْمَتًا ، ولم يجعل كِفاياتِهم مقصورةً عليهم ، محتسبة لهم فى أوطانهم؟

---

(١) الآية ٦٦ من سورة النساء .

(٢) الآية ٢٤٦ من سورة البقرة .

(٣) والمترص : المحكم المقوم ، كما يترص العقد والميزان ونحوهما .

ألا تَراه يقول : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[1] فقسَّم الحاجات فجعل أكثَرها فى البُعـد ، وقال عزّ ذكره : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾[2] فأخرج الكلام والإطلاق على مُخرج العموم ، فلم يخصّ أرضاً دون أرض ، ولا قُرباً دون بَعد .

٣ - فصل منه

ونحن ، وإنْ أطنبنا فى ذكر جملة القَولِ فى الوطن ، وما يَعملُ فى الطبائع ، فإنَّا لم نذكر خصال بلدةٍ بعينها ، فنكونَ قد خالفنا إلى تقديم المؤخَّر وتأخير المقدَّم .

قالوا : ولم نجهل ولم ننْكر أنَّ نَفْس الإلف يكون من صَلاح الطبيعة، حتَّى إنَّ أصحاب الكِلابِ ليجعلون هذا من مفاخرها على جميع ما يُعاشِر النَّاسَ فى دُورهم من أصناف الطير وذوات الأربع : وذلك أنَّ صاحب المنزل إذا هَجَم منزِلَه[3] واختار غيرَه ، لم يتبعْه فرسٌ ولا بغلٌ ولا حِمارٌ ، ولا ديكٌ ولا دَجاجة ، ولا حمامةٌ ولا حمام ، ولا هِرٌّ ولا هرّة، ولا شاةٌ

(١) الآية ٢٠ من سورة المزمل .

(٢) الآية ١٠ من سورة الجمعة .

(٣) هجم منزل هجمًا : هدمه . وهُجم البيت ، إذا قُوّض . ومنه قول علقمة :

صعل كأن جناحيه وجؤ جؤه ... بيت أطافت به خرقاء مهجوم

، ولا عُصفور ، فإنَّ العصافير تألفُ دُورَ النَّاس ، ولا تكاد تقيم فيها إذا خَرَجُوا منها . والخطاطيف تقطعُ إليهم لُتقيم فيها إلى أوان حاجتها إلى الرُّجوع إلى أوطانها ، وليس شيءٌ من هذه الأنواع ممَّا تبوأً فى الدُّور باجتلابهم لها ، ولا ماتبوأ فى دورهم مما ينزع إليهم أحنَّ من الكَلْب، فإنَّه يُؤْثره على وطنه ، ويَحميه ممن يغشاه .

فذكروا الكلبَ بهذا الخُلُق الذى تفرَّد به دونَ جميع الحيوان .

وقالوا فى وجه آخر : أكرم الصَّفايا أشدُّها ولَهًا إلى أولادها[1] ، وأكرَمُ الإبل أحنُّها إلى أعطانها[2] ، وأكرم الأفلاء[3] أشدُّها ملازمةً لأمَّهاتها ، وخير النَّاسِ آلَفُهُمْ للنَّاس .

٤ - فصل منه

وقلتم : خبِّرونا عن الخصال التى بانت بها قريشٌ عن جميع الناس. وأنا أعلم أنَّك لم تُرِد هذا ، وإنَّما أردتَ الخصالَ التى بانت بها قريشٌ من سائر العرب ، كما ذكرنا فى الكتاب الأوَّل الخصالَ التى بانت بها العرب عن العجم ، لأنَّ قريشاً والعربَ قد يَستَوُون فى مناقبَ كثيرة . قد يُلفَى

---

(١) الصفايا : جمع صفية ، وهى الناقة والشاة الغزيرة اللبن .

(٢) العطن الإبل كالوطن للناس ، وقد غلب على مبركها حول الحوض .

(٣) الأفلاء : جمع فلو بالكسر ، أو فلو كعدو ، أو فلو بضمتين مع التشديد ، وهو المهر الذى لم يرض ، أو الذى بلغ السنة .

فى العرب الجوادُ المُبر[1] وكذلك الحليم والشُّجاع ، حتى يأتىَ على خصالٍ حميدة ؛ ولكنا نريد الخصائصَ التى فى قُريشٍ دون العرب .

فمن ذلك أنَّا لم نر قريشيًّا انتسب إلى قبيلة من قبائل العرب ، وقد رأينا فى قبائل العرب الأشراف رجالاً - إلى السَّاعة - ينتسبون فى قريش، كنحو الذى وجَدْنا فى بنى مُرَّةَ بنِ عوف ، والذى وجدنا من ذلك فى بنى سُلَيم ، وفى خزاعة ، وفى قبائل شريفة .

وممَّا بانت قريش أنَّها لم تلدْ فى الجاهلية ولدًا قطّ (لغيرها) ولقد أخذ ذلك منهم سُكَّانُ الطَّائف ، لقُرب الجِوار وبَعضِ المصاهرة ، ولأنَّهم كانوا حُمْساً ، وقُريش حَمَّستهم .

وممَّا بانت به قريش من سائر العرب أنَّ الله تعالى جاء بالإسلام وليس فى أيدى جميعِ العرب سبيَّةٌ[2] من جميع نساء قريش ، ولا وَجَدوا فى جميع أيدِى العرب ولدًا من امرأةٍ من قريش .

ومما بانت به قريشُ من سائر العرب أنّها لم تكن تزوّج أحداً من أشراف العرب إلاَّ على أن يتحمَّس ، وكانوا يُزَوَّجون من غير أن يُشتَرَطَ عليهم ، وهى عامر بن صعصعة ، وثقيف ، وخُزاعة ، والحارث بن كعب ، وكانوا ديانِيِّين[3] ، ولذلك تركوا الغَزْو لما فيه من الغَصْب

---

(1) المبر : الغالب . وفى اللسان (برر ١١٩) : «وسئل رجل من بنى أسد : أتعرف الفرس الكريم ؟ قال : أعرف الجواد المبر من البطىء المقرف» .

(2) السبية : المسبية التى لحقها السباء ، وهو الأسر والنهب .

(3) نسبة إلى الديانة .

والغَشْم[1] ، واستحلال الأموال والفروج .

ومن العجب أنَّهم مع تركهم الغَزْوَ كانوا أعزَّ وأَمْثَلَ ، مثل أيَّام الفِجَار[2] وذات كَهْف[3] .

أَلاَ ترى أنَّهم عند بُنيان الكَعْبة قال رؤساؤهم : لا تُخرِجوا فى نفقاتكم على هذا البيت إلاَّ من صَدُقَات نسائكم[4] ، ومواريث أبائكم ! أرادوا مالاً لم يكسبوه ولايشكُّون أنه لم يدخله من الحرام شىء .

ومن العجب أنَّ كسبهم لَمَّا قَلَّ مِن قِبَلِ تركهم الغَزْو ، ومالُوا إلى الإيلاف والجهاد ، لم يَعْتَرِهِمْ من بُخل التجَّار قليلٌ ولا كثير ، والبُخلُ خِلقةٌ فى الطِّباع ، فأَعْطُوا الشُّعراءَ كما يُعطِى الملوك ، وقَرَوُا الأضيافَ ، ووَصَلُوا الأرحام ، وقاموا بنوائب زُوَّارِ البيت ، فكان أحَدُهم يَحِيسُ الحَيْسَةَ فى الأنطاع[1] فيأكل منها القائمُ والقاعد ، والراجُل والرَّاكب[2]

---

(١) الغشم : الظلم .

(٢) أيام الفجار ، بكسر الفاء : حروب أربعة كانت أولاها وثالثها بين كنانة وهوازن وثانيتها بين قريشٍ وهوازن ورابعتها بين قريش وكنانة كلها وبين هوازن . وكانت كلها قبل البعثة بست وعشرين سنة .

(٣) ذات كهف : موضع كانت فيه وقعة لهم . وفيه يقول بشر بن أبى خازم الأسدى :

يرومون الصلاح بذات كهف ... وما فيها لهم سلع وقار

الصلاح ، بالكسر : الصلح . وانظر المفضليات ٣٤١ .

(٤) الصدقات : المهور ، وهى بضم الدال وفتحها مع فتح الصاد ، ومثلها الصدقة بضم الصاد وبضمتين ، وكذلك الصداق كسحاب وككتاب . وفى الكتاب العزيز : **« وآتوا النساء صدقاتهن نحلة »** ، لم تقرأ فى القراءات الأربع عشرة إلا بفتح الصاد وضم الدال . وانظر تفسير أبى حيان ٣ : ١٦٦ والإتحاف ١٨٦ .

وأطعمُوا بدلَ الحَيْس الفَالوذَج[٣] . ألا ترى أميَّةَ بن أبى الصلت يقول ، ويذكُرُ عبدَ الله بن جُدْعان [٤] :

لـــه داعٍ بمكَّـــةَ مشمعـــلٌّ ... وحفصٌ فوق دارته ينادِى[٥]

إلى رُدُحٍ مـن الشِّيزى مِلاءٍ ... لُبابَ البُرِّ يُلْبَك بالشِّهادِ[٦]

فلُبَاب البُرّ هو هذا النَّشا ، والشِّهاد يعنى به العسل .

---

(١) الحيس : طعام يتخذ من التمر والأقط (والأَقِطُ لبنٌ مُحـمَّضٌ يُجمَّدُ حتى يستحجر ويُطبخ) يدقان ثم يعـجنان بالسمن عجنًا شديـدًا حتى يندر النوى منه نواة نواة ثم يسوى كالثريد . والنطع بتثليث النون : بساط من الجلد.

(٢) الراجل : من يمشى على رجليه ، مقابل الراكب . وفى النسختين : « الداخل » ، صوابه ما أثبت .

(٣) الفالوذ والفالوذج : طعـام يتخذ من الدقيق والماء والعسـل ، مـعرب . وانظر صنعة متقدمة منه فى كتاب الطبيخ للبغدادى ص ٧٦ .

(٤) جدعـان بضم الجيم ، كمـا فى القاموس (جدع) . وعـبدالله هذا جواد مـعروف مات قبل الإسلام ، واسمه عبدالله بن جدعان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرة . وقال فيه رسول الله ﷺ : « شهدت مأدبة فى دار ابن جدعان » . وفى الإصـابة ٤٥٧٨ أن النبى ﷺ قال لـه : « إذا اشتـريت نعلا فـاسـتجـدها ، وإذا اشتريت دابة فـاستفرهها ، وإذا كان عندك كـريمة قوم فأكرمها » . وسـألت عائشة عنه رسول الله وذكرت له مـا كان فيه من الجود فقـال : « إنه لم يقل رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين ».

(٥) الرواية المعروفـة : « وآخر فوق دارته » . ديوان أمية ٢٧ والبيان ١ : ١٧ والأغانى ٨ : ٣ .

(٦) ردح ، أى قصاع عظيمة ، الواحدة رداح كسحاب . والشيزى : خشب أسود تتخذ منه القصاع . يلبك : يخلط . والشهاد : جمع شهد بالفتح والضم ، وهو العسل ما دام لم يعصر من شمعه .

ألا ترى أنَّ عمـر بن الخطاب يقول: «أتُرَوْنى لا أعـرِفُ طيِّب الطعام؟ لُباب البُرِّ بصِغارِ المِعزَى» ، يعنى خُبْزَ الحُوَّارَى بصغار الجداء[1] .

ولقـد مدحـتهـم الشُّعراءُ كـما يُمـدح الملوك ، ومَدحَتـهم الفرسـانُ والأشـراف وأخذوا جـوائزهم ؛ منهم : دريد بن الصِّمَّة ، وأمـيَّة بن أبى الصَّلت .

ومن خـصـالهم أنَّهم لم يُشـاركـوا العـربَ والأعـرابَ فى شىءٍ من جَفَائهم، وغِلَظ شَهَواتهم ؛ وكـانوا لا يـأكلون الضِّبـاب ، ولاشـيـئًا من الحشرات؛ ألا ترى أنَّ النبى - ﷺ - أتَوْا خِوانَهُ بضبٍّ فقال : « ليسَ من طَعـامِ قَوْمى » ، لأنَّهم لم يـكونوا يَحـرِشُون الضِّبـاب [2] ، ويَصيـدون اليرابيع ، ويملُّون القَنافذ [3] ، أصحابُ الخَمْر والخَمير ، وخُبز التَّنانير .

وقال رسول الله - ﷺ - : « أنا أفـصحُ العَرَب بيد أنِّى من قريشٍ، ونَشأتُ فى بنى سعد بن بكر » .

وذلك أنَّ جميع قـبائِل العرب إنَّما كانت القـبيلةُ لا تكاد ترى وتُسمعُ إلاَّ من قبيلتها ورجالهـا ، فليس عندهم ، إلاَّ عند قبيل واحد ، من البيان

---

(1) الحـوارى ، بضم الحاء وتشـديد الواو ، مقـصـور : الدقيق الأبيض ، وهو لبـاب الدقيق وأجـوده وأخلصه . والجـداء : جمع جدى ، كـما يجمـع أيضًا على أجد وجديان .

(2) حرش الضب يحرشه ، بالكسر ، حرشًا : صـاده ، كاحترشه . وذلك بأن يحرك يده على باب حجره ليظنه حية ، فيخرج ذنبه ليضربها فيأخذه .

(3) يملونه : يجعلونه فى الملة ، وهو الرماد الحار والجمر ، يشتوونه ليؤكل .

والأدب والرأى والأخلاق ، والشمائِل ، والحلم والنَّجدة والمعرفة ، إلاَّ فى الفَرْط .

وكانت العـرب قاطبَة ترد مكَّة فى أيَّام المواسم ، وتـرد أسواقَ عكاظِ وذا المجـاز ؛ وتقـيم هناك الأيَّامَ الطِّوال ، فـتَعْرُف قـريش[1] ، لاجتـماع الأخلاق لهم [و] الشَّمائل والألفاظ ، والعُقول والأحلام ، وهى وادعة، وذلك قائمٌ لها ، راهنٌ عندها فى كلِّ عام ، تَتملَّك عليهـم فيقتسمونهم ، فتكون غَطَفَـان للمِيرة[2] ، وبنو عـامــرٍ لكذا ، وتميم لكذا ، تغـلبـهـا المناسك[3] وتقوم بجميع شأنها .

٥ - فصل منه

وفتح مكة يسمَّى فتحَ الفتوح ؛ وهو بيتُ الله ، وأهله وحُجَّاجُه زوَّار الله ؛ وهو البيت العتيق والبيتُ الحرام ؛ وفيه الحِجْر ، والحَجر الأسْود .

وله زمزم ، وهى هزمـة جبريل [4] - صلوات الله عليـه - ، ومَقَام

(١) عرف يعرف عرافة : صار عريفًا ، أى سيدًا .

(٢) الميرة : الطعام يمتاره المرء ، أى يجلبه .

(٣) لعلها : « وتغلب للمناسك » .

(٤) من أسماء زمزم « هزمة جبـريل » لأنه ضرب برجله فانخفض المكان فنبع الماء ، أو أنه هزم الأرض ، أى كسـر وجهها عن عـينها حتى فـاضت الماء الرواء . وتسمى زمزم أيضًا : « ركضة جبريل » .

إبراهيم . وماء زمزم لِمَا شُرِبَ له ، العاكفُ فيه والبادِى سواءٌ[1] .

وبسبب كرامته أرسل الله طَيْر الأبابيل[2] وحجارة السِّجِّيل . وأهلهُ حُمْس ولَقَاح[3] لا يؤدُّون إتاوة ؛ ولهم السِّقايةُ، ودار النَّدوة ، والرِّفادةُ ، والسِّدانة .

قال : وأقسم الله تعالى بها ، قال : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾[4] . وقوله جل ذكره : (لاَ أُقْسِمُ) أى : أقسم ، وإنَّما قوله « لا » فى هذا الموضع صلةٌ ، ليس على معنى « لا » الذى هو خلاف « نعم » .

وقالوا : ولو كان قوله : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾[5] يراد به تقادُمُ البنيان ، وما تعاوره[6] من كُرور الزَّمان ، لم يكن فضلُه على سائر البُلدان ، لأنَّ الدنيا لم تَخْلُ من بيتٍ ودار ، وسُكَّان وبُنْيان . وقد مرَّت

---

(١) البادى : المقيم بالبادية . ب : « والباء » ، وهى لغة صحيحة جائزة قرأ بها جمهرة القـراء فى الوقف والوصل ، وأثبت الياء فى الوصل فقط ورش وأبو عمرو وأبو جعفر . أما يعقوب وابن كثير فقد أثبت الياء فى الحالين جميعًا .

(٢) والأبابيل : الجماعات .

(٣) حمس: جمع أحمس، وهو الشديد الصلب فى الدين والقتال. ويقال قوم لقاح، بفتح اللام، وحى لقاح: لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم فى الجاهلية سباء.

(٤) الآية ١ ، ٢ من سورة البلد .

(٥) الآية ٢٩ من سورة الحج .

(٦) تعاوره : تداول عليه وتعاقب .

الأيَّام على مصر ، وحَرَّان ، والحِيرَةِ ، والسُّوس الأقصى [1] ، وأشباهِ ذلك ، فجعل البيت العتيق صفةً له ، ولو كان ذهب إلى ما يعنون ، كان من قَبلِ أنْ يَعْتُقَ وتمرَّ عليه الأزمنة ليس بعتيق . وهذا الاسم قد أُطلِقَ له إطلاقًا ، فاسمه البيت العتيق ، كما أنَّ اسمَه بيتُ الله .

ومن زعم أن الله تعالى حَرَّمه يوم خلق السَّمواتِ والأرض ، فقولنا هذا مِصداقٌ له .

ومن زعم أنَّه إنَّما صار حرامًا منذ حرَّمه إبراهيم ، كان قد زعم أنَّه قد كان ولا يقال له عتيقٌ ولا حرام .

قالوا : وممَّا يصدِّق تأويلَنا أنَّه لم يُعَرفْ إلاَّ وهو لَقَاح ، ولا أدَّى أهلُه إتاوةً قَطُّ ، ولا وطِئتْه الملوكُ بالتَّمليك : أنَّ سابورذا الأكتاف ، وبُخْت نَصَّر وأبا يكسوم وغيرَهم ، قد أرادُوه فحال الله تعالى دونه ، فتلك عادةٌ فيه ، وسُنَّةٌ جارية له .

ولولا أنَّ تُبَّعَ أتاه حاجًا ، على جهة التعظيم والتديُّن بالطَّواف ، فحجَّه وطافَ به ، وكَسَاه الوصائل [2] ، لأخرَجه الله منه .

وحجَّهُ بعضُ مُلوكِ غَسانَ ولخمٍ ، وهم نصارى ، تعظيمًا له ، ولِما جعَلَ اللهُ له فى القلوب .

---

(١) السوس الأقصى : كورة بالمغرب ، قصبتها طرقلة . وأما السوس الأدنى فهى بلدة بخوزستان . وبين السوسين مسيرة شهرين ، كما ذكر ياقوت .

(٢) الوصائل : ثياب يمانية ، وقيل ثياب حمر مخططة يمانية ، واحدتها وصيلة .

والعَتيق يكون من رقّ العبوديّة ، كالعبد يَعتقه مولاه . ويكون عتيقًا من النار ، كالتائب من الكبائر ، وكالرَّجل يدعو إلى الإيمان فيُستجاب له، ويتعلَّم ناسٌ على يده ، فهُمْ أيضًا عُتَقاءُ .

ويكون الرَّجلُ عتيقًا مِن عِتْق الوجه .

وربَّما كان عتيقًا كما يقال للفرس عتيقٌ وليس بهجين ولا مُقْرِف . وقد سُمِّى أبو بكرٍ بن أبى قُحافَةَ - رضوان الله عليه - عتيقًا ، من طريق عِتْق الوجه ، ومن طريق أنَّهم طلبوا المثالبَ والعيوب التى كانت تكون فى الأُمَّهات والآباءِ فلمْ يَجِدوها ، قالوا : ما هذا إلاَّ عتيق .

٦ - فصل منه

قد قلنا فى الخصال التى بانت بها قريشٌ دونَ العرب . ونحن ذاكرون - وبالله التوفيقُ - الخصالَ التى بانت بها بَنُو هاشمٍ دونَ قريش .

فأوَّلُ ذلك النبوَّة ، التى هى جِماعُ خصالِ الخَيْر[١] ، وأعلاها وأفضلُها ، وأجلُّها وأسناها .

ثمَّ وجَدْنا فيهم ثلاثةَ رجالٍ بَنِى أعمامٍ فى زمانٍ واحد ، كلُّهم يسمَّى عليًّا ، وكلُّ واحدٍ من الثَّلاثة سيِّدٌ فقيه ، عالمٌ عابد ، يَصلُح للرِّياسة

(١) وجماع الشىء بالكسر : مجمعه ومظنته . يقال : « الخمر جماع الإثم » . وفى قول الحسين * : « اتقوا هذه الأهواء التى جماعها الضلالة وميعادها النار » . اللسان (جمع ٤٠٥) .

والإمامـة ؛ مثلَ عليّ بن عبـدالله بن العبّاس بن عـبد المطَّلبِ بن هاشم ، وعليٌّ بن الحُسَين بن عليٍّ بن أبي طالب بن عبد المطَّلب بن هاشم ، وعليٌّ ابن عبدالله بن جَعفرٍ بن أبي طالب بن عبد المطَّلب بن هاشم .

ثُمَّ وجَدْنا ثلاثةَ رجـالٍ بني أعمـامٍ ، في زمانٍ واحدٍ ، كلُّهـم يسمَّى محمَّدًا ، وكلُّهم سيِّدٌ وفقيهٌ عـابد ، يَصلُح للرياسة والإمامة ، مثلَ محمَّد ابن عليّ بن عبـدالله بن العبَّاس بن عـبد المطلب بن هاشم ، ومـحمَّدِ بن عليٍّ بن الحسين بن عليٍّ بن أبي طالب بن عـبد المطَّلب بن هاشم ، ومثلَ محمَّد بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطَّلب بن هاشم .

وهذا من أغـربِ مـا يتـهيَّأ فـي العالـم ، ويتَّفق في الأزمنة ، وهذه لايشركهم فيها أحد ، ولا يستطيع أن يدَّعيَ مثلَها أحد .

ولبني هاشمٍ واحدةٌ[1] مبرِّزة ، وثانيةٌ نادرة ، يتقدَّمون بها على جميع الناس . وذلك أنَّا لا نعرف في جميع مَمْلـكةِ العرب ، وفي جميع مَملكة العـجم ، وفي جـميـع الأقاليم الـسَّبعَة ، مَلِكًا واحـدًا مُلكهُ مِن نصـاب واحدٍ، وفي مـغرِسِ رسالة ، إلاَّ من بني هاشمٍ ، فـإنَّ مَلِكهم العبّاسُ بن عـبدِ المطلب ، عمُّ رسـول الله - ﷺ ، والعمُّ وارثٌ ، والعمُّ أبٌ . ولا تعلم أمَّةً تدَّعي مثلَ هذا لِملكِها .

وهذا شيءٌ سمعتُه من أبي عُبيدة ، ومنه استمليت هذا المعنى .

---

(١) أي خصلة ، أو ميزة .

ولبنى هاشم - مُذْ ملكوا هذه الدُّفعة - دون أيَّام علىّ بن أبى طالب والحسين بن علىٍّ إلى يومنا هذا مائةٌ وستٌّ عشْرة سنة[1] . كان أوَّل بركتهم أنَّ الله - تعالى - رفع الطَّواعين والمُوتانَ الجارف ، فإنَّهم كانوا يُحصَدون حصدًا بعد حصد .

ثمَّ الذى تهيَّأ واتَّفق ، وخُصَّ به آل أبى طالب من الغرائب والعجائب والفضائل ، مالم نجده فى أحدٍ سواهم : وذلك أنَّ أوَّلَ هاشمىٍّ هاشمىٍّ الأبوَين كان فى الدُّنيا وُلِدَ لأبى طالب ، لأنَّ أباهم عبد مناف . وهو أبو طالب بن شَيْبة - وهو عبد المطَّلب بن هاشم - وهو عمرو - وهو أبو شيبة . وشيبة هو عبد المطَّلب . وهو أبو الحارث وسيِّد الوادى غير مدافَع ، بن عمرو ، وهو هاشم بن المغيرة ، وهو عبد مناف.

ثم الذى تهيَّأ لبنى أبى طالب الأربعة : أنَّ أربعةَ إخوة كان بين كلِّ واحد منهم وبين أخيه فى الميلاد عَشْرُ سِنينَ سواءً ، وهذا عَجَبٌ .

ومن الغرائب التى خُصُّوا بها ، أعنى ولدَ أبى طالب ، أنَّا لا نعلم الإذكار فى بلدٍ من البُلدان ، وفى جيلٍ من الأجيال ، [إلاَّ] أهلَ خُراسان فمن دونهم ، فإنَّ الإذكار فيهم فاشٍ ؛ كما أنَّك لا تجد مِن وراءِ

(١) هذا يؤرخ زمن تأليف هذا الكتاب ، وهو سنة ٢٤٨ ، أى قبل وفاة الجاحظ بسبع سنوات .

بلادِ مصر إِلاَّ مِئناثاً ، ثم لا ترى فيهنَّ مُفِذاً [1] بل لا ترى إِلاَّ التُّؤَامَ ومن البَنات .

فتهيَّأ فى آل أَبى طالب من الإِذكار ما لم نَعرِفه فى قديم الدهر وحديثه ، ولا فيما قَرُب من البُلدانِ ولا فيما بَعُد .

وذلك أَنَّ آل أَبى طالب أُحْصُوا منذُ أَعوامٍ وحُصِّلوا ، فكانوا قريبًا من أَلفين وثلثمائة ، ثم لا يزيد عددُ نسائهم على رجالهم إِلاَّ دون العُشْر . وهذا عَجَب .

وإِن كنتَ تريد أَن تتعرَّف فضلَ البناتِ على البنين ، وفضلَ إِناثِ الحيوانات على ذكورها ، فابدأ فخُذْ أَربعين ذراعًا عن يمينك ، وأَربعين ذراعًا عن يسارك ، وأَربعين خلفك ، وأَربعين أَمامك ، ثم عُدَّ الرِّجالَ والنِّساءَ حتَّى تعرف ما قُلْنا ، فتعلمَ أَنَّ الله تعالى لم يُحلِّل للرَّجل الواحدِ من النِّساءِ أَربعًا ثم أَربعًا ، متى وقع بهن موتٌ أَو طلاق ، ثم كذلك للواحد ما بين الواحدةِ من الإِماءِ إِلى ما يشاءُ من العدد ، مجموعاتٍ ومفترقات ، لئلا يَبْقَين إِلاَّ ذواتِ أَزواجٍ .

ثم انظر فى شأْن ذَوَاتِ البَيْض وذوات الأَولاد فإِنَّك سترى فى دارٍ خمسين دجاجةً وديكًا واحدًا ، ومن الإِبل الهَجْمةَ وفحلاً واحدًا ، ومن الحمير العانَةَ وعيرًا واحدًا . فلمَّا حصلوا كل مئناثٍ وكلَّ مذكار ،

---

(١) أفذت : ولدت ولدا واحدًا ، وإن كان من عادتها أن تلد واحدًا فهى مفذاذ .

فـوجدوا آل أبى طالـبٍ قد بَرَعـوا على الناس وفَضَلوهم ، عـرف الناس موضعَ الفضيلةِ له والخُصوصيَّة .

وفى ولدِ أبى طالب - أيضًا - أُعجـوبةٌ أُخرى ؛ وذلك أنّه لم يُوجد قَطُّ فى أطفالِهم طفلٌ يَحْبُو ، بل يَزحفُ زحـفًا لئلاً ينكشفَ منه عن شىء يَسوءُه ، ليكونَ أوفرَ لبهائه ، وأدَلَّ على ما خُصُّوا به .

ولهم من الأعاجيب خَصـلةٌ أُخْرى : وذلك أنَّ عُبيدَ الله بنَ زيادٍ قَتَل الحُسينَ فى يومِ عاشُوراءَ وقَتَله اللهُ يومَ عاشوراءَ فى السَّنَة الأُخرى .

وقالوا : لا نعلم موضع رجلٍ من شُجعـانِ أصحاب رسول الله ﷺ، كان له من عَدَدِ القَتْلى [1] ما كان لعلىٍّ رضـوان الله عليه ، ولا كان لأحد مع ذلك من قَتْلِ الرُّؤساءِ والسَّادة ، والمتبوعـين والقادَة ، ما كان لعلىٍّ بن أبى طالبٍ . وقتلُ رئيسٍ واحـد ، وإن كان دون بَعضِ الفُرْسان فى الشِّدَّة ، أشدُّ ؛ فـإنَّ قتلَ الرئيس أرَدُّ على المسلمين وأقوى لهم من قـتل الفارسِ الذى هو أشدُّ من ذلك السيِّد .

وأيضًا - أنَّه قد جمع بين قتل الرُّؤساءِ وبين قَتْل الشُّجعان .

وله أُعجوبةٌ أُخرى ؛ وذلك أنَّه مع كـثرةِ ما قَتَل وما بارز ، وما مَشى بالسيف إلى السَّيف ، لـم يُجْرَحْ قطُّ ولا جَرحَ إنسانًا إلاَّ قَتَله ، ولا نعلم فى الأرض متى ذُكِر السَّبْقُ فى الإسلامِ والتَّقدُّمُ فـيه ، ومتى ذُكِر الفقهُ فى

(١) المراد عدد من قتل من نسله .

الدِّين ، ومتى ذُكر الزُّهد فى الأموالِ التى تَشَاجَرَ النَّاسُ عليها ، ومتى ذُكِر الإعطاءُ فى الماعون ، كـان مذكورًا فى هذه الحـالاتِ كلِّها - إلاَّ عليَّ ابنَ أبى طالبٍ كرَّم الله وجهه .

قالـوا : وكان الحسن يقول : قـد يكون الرجل عالمًا وليس بعـابد ، وعـابدًا وليسَ بعـالم ، وعابـدًا وليس بعاقـل ، وعاقـلاً وليس بعـابد . وسُليمان بن يسار [1] عالمٌ عاقل عابد ، فانظُرْ أين يقع خصال سليمانَ من خصال عليٍّ بن أبى طالب * .

ولـم يكن قـصدُنا فى أوَّل هذا الـكتاب إلى ذكـر هاشم ، وقد كـان قصدُنا الإخـبارَ عن مكَّة بما قد كتبناه فى صـدر هذا الكتاب ، ولكنَّ ذكر خصالِ مكَّةَ جرَّ ذكر خصالَ قريش ، وذكـر خصال قريش جرَّ ذكر خصالِ بنى هاشم .

فإن أحـببتَ أن تعرفَ جُملة القـولِ فى خصال بنـى هاشم فانظر فى كتابى هذا الذى فَرَّقْتُ فـيهِ بين خصال بنى عبـدِ منافٍ وبين بنى مخزوم ، وفَرَّقت ما بين عبد شمس ؛ فإنَّه هُنَاكَ أوفَرُ وأجمَعُ ، إنْ شاءَ الله تعالى.

---

(1) هو أبو أيوب ، أو أبو عبـد الرحمن ، أو أبو عبـدالله ، سليمان بن يسـار الهلالى المدنى، مولى ميمونة ، ويقال كـان مكاتبًا لأم سلمة . روى عن ميمونة وأم سلمة وعائشـة وزيد ابن ثابت وابن عباس وغيـرهم . وعنه عمرو وعـبدالله ابنا دينار ، وأبو الزناد والزهرى ونافع وغيرهم . وكان ثقة عابدًا ، يصوم يومًا ويفطر يومًا . ولد سنة ٢٧ وتوفى سنة ١٠٧ . تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٢ : ٤٥ .

٧ - فصل منه

قـالوا : وقد تعـجَّبَ الناسُ من ثَبـاتِ قريش ، وجـزالة عَطاياهم ، واحـتمـالهم المُؤَنَ الغـلاظ فى دوام كَسْبِهم من التِّجـارة ، وقد علمـوا أنَّ البُخْلَ والبَصَر فى الطَّفيف مقرونٌ فى التـجارة ؛ وذلك خُلقٌ من أخلاقهم . وعلى ذلك شاهِدُ أهلِ الترقيح[1] والتكسُّب والتَّدنيق[2] .

فكان فى ثبـات جُودهم العـالى على جُود الأجـواد ، وهم قـومٌ لا كسْبَ هم إلاَّ من التجارة ، عَجَبٌ من العَجَب .

ثُمَّ جاءَ ما هو أعجَبُ من هذا وأَطمُّ[3] ، وذلك أنَّا قد علمنا أنَّ الرُّوم قَبْلَ التديُّن بالنَّصرانيَّة ، كانت تنتـصفُ من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سِجالاً ، فلمَّا صارت لا تَدينُ بالقَتْل والقتال ، والقَودَ والقصاص ، اعتراهُم مـثلُ ما يعترى الجُبَناءَ حـتَّى صاروا يتكلَّفون القتـالَ تكلُّفا . ولَمَّا خامرتْ طبائعَهم تلك الدِّيانة ، وسَرَتْ فى لحـومهم ودمائهم فصارت تلك الدِّيانة تَعترِض عليهم ، خَرَجُوا من حـدود الغالبيَّة إلى أنْ صاروا مغلوبين.

---

(١) ترقيح المال : إصلاحه والقيام عليه .

(٢) التدنيق : البـخل والشح ، مأخوذة من الدانق بكسـر النون وفتحهـا ، وهو سدس الدينار والدرهم . وفى حديث الحسن : « لعن الله الدانق ومن دنق » . والمراد به هنا الحرص والدقة فى المعاملة .

(٣) أى أكثر وأعظم . ومنه الطامة ، وهى القيامة ، والداهية .

وإلى مثل ذلك صارت حَالُ التُّغـزْغُز[1] من التُّرك - بعد أن كانوا أنجادَهم وحُماتَهم ، وكانوا يتقدَّمون الخَرْلُخيَّة ، وإن كانو فى العدَد أضعافَهم ، فلما دانُوا بالزَّندقة - ودينُ الزَّندقة فى الكَفِّ والسِّلْمِ أسوأُ من دِين النَّصارى - نَقَصَت تلك الشَّجاعة ، وذهبَتْ تلك الشهامة .

وقريشٌ من بين جميع العرب دانُوا بالتحمُّس ، وتشدَّدوا فى الدين ، فتركوا الغَزْو كراهةً للسَّبى واستحلال الأموال واستحسان الغَصْب ؛ فلمَّا تركوا الغَزْوَ لم تبقَ مكسبةٌ سوى التِّجارة ، فضربوا فى البلادِ إلى قيصرَ بالرُّوم ، وإلى النجاشىِّ بالحبشة ، وإلى المُقوقِس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تُجَّارًا خُلَطاءَ ، وبانوا بالدِّيانة والتحمُّس ، فحمَّسوا بنى عامر بن صعصعة ، وحمَّسوا الحارثَ بنَ كعب ، فكانوا - وإن كانوا حُمْسًا - لايتركون الغَزْوَ والسَّبى ووطءَ النِّساء ، وأَخْذَ الأموال ، فكانت نَجْدتهم - وإن كان أنقَصَ - فإنَّها على حالِ النَّجْدة ، ولهم فى ذلك بقيَّة[2] .

وتركَتْ قريشٌ الغَزْو بَتَّةً ، فكانوا - مع طُولِ تَرْكِ الغَزْو - إذا غَزَوْا كالأُسود على براثنها ، مع الرأى الأصيل ، والبصيرةِ النَّافذة .

أفليسَ من العَجَب أَنْ تبقى نَجدتُهم ، وتثبُتَ بسالتُهم ، ثم يَعْلون

---

(١) التغزغز : جيل من الترك كانوا يعيشون فى بقاع موغلة نحو الغرب ، وكانوا جيرانًا للخرلخ ، أو القرلق . وقد انحدر من نسلهم أحمد بن طولون . انظر دائرة المعارف الإسلامية فى رسمها . وانظر حواشى الكامل لابن الأثير ١١ : ١٧٨ بيروت .

(٢) البقية : الفضل فيما يمدح به .

الأنجاد والأجواد ، ويَفْرَعُون الشّجعان [1] ؟! وهاتان الأُعجوبتان بيِّنتان .

وقد عُلِمَ أنَّ سبب استفاضة النجدة فى جميع أصناف الخوارج وتقدُّمِهم فى ذلك ، إنَّما هو بسبب الدِّيانة ، لأنَّا نجد عبيدَهم ومواليَهم ونساءَهم ، يقاتلون مثلَ قتالهم ، ونجد السِّجستانىَّ وهو عجمىٌّ ، ونجد اليمامىَّ والبَحْرانىَّ والخوزى [2] [وهم غير] عرب ، ونجد إباضيَّةَ عُمَان وهى بلادُ عربٍ ، وإباضيَّةَ تاهرت وهى بلاد عجم ، كلُّهم فى القتال والنَّجدة ، وثباتِ العزيمة ، والشِّدَّة فى البأس سواءً . فاستوت حالاتهم فى النَّجدة مع اختلافِ أنسابهم وبُلدانِهم . أفما فى هذا دليلٌ على أنَّ الذى سوَّى بينهمُ التَّدَيُّن بالقتال ، وضروبٌ كثيرة من هذا الفَنّ ؟!

وذلك كلُّه مُصوَّر فى كتبى ، والحمدُ لله .

وقد تَجِدون عُمومَ السُّخف والجهلِ والكذب فى المواعيدِ ، والغشَّ فى الصناعة ، فى الحاكة [3] ، فدلَّ استواءُ حالاتهم فى ذلك على استواء عِلَلهم . ليست هناك علَّةٌ إلاَّ الصِّناعة ؛ لأنَّ الحاكة فى كل بلدٍ شىءٌ واحد . وكذلك النَّخَّاس وصاحب الخُلْقان ، وبيَّاع السَّمك . وكذلك الملاَّحون وأصحاب السَّماد ، أوَّلُهم كآخرهم ، وكهولُهم كشبَّانهم ، ولكن قُلْ فى استواءِ الحجَّامين فى حُبِّ النبيذ [4] !

(١) فزع القوم : علاهم وفاقهم .
(٢) الخوز هم أهل خوزستان .
(٣) الحاكة جمع حائك .
(٤) أى حدث عنهم ولا حرج .

٨ - فصل منه

فى ذكر المدينة

وأَمْر المدينة عَجَبٌ ، وفى تُربهـا وتُرابها[١] وهوائها ، دلـيلٌ وشاهدٌ وبرهانٌ على قـول النبىِّ ﷺ : « إِنَّها طيِّبة تَنْفِى خَبَثَهـا وتنصـع طِيبَها[٢] » لأنَّ من دخلهـا أَو أقام فيـها ، كـائنا من كان من النَّاس ، فـإِنَّه يجد من تُربتهـا وحِيطانها رائحـةً طيبةَ ، ليس لهـا اسمٌ فى الأرابيح[٣] ، وبذلـك السبب طاب طِيبُهـا والمَعجوناتُ من الطِّيب فيهـا . وكذلك العُودُ وجَميعُ البَخُور ، يَضَّاعَفُ طِيبُها فى تلك البلدة على كلِّ بلدٍ استعمل ذلك الطِّيب بعينه فيها .

وكذلك صيَّاحها [٤] والبَلَحُ والأَترُجُّ والسَّفَرْجل ، أَعنى المجعول منها سُخُبًا للصِّبيان والنِّساءِ [٥] .

---

(١) التربة : ظاهر الأرض .

(٢) فى اللسان (نصع) : « وفى الحديث : المدينة كالكير ، تنفى خبثها وتنصع طيبها ، أى تخلصه » .

(٣) وكذا فى الحيوان ٧ : ٢٣٠ : « وجد منها عرفًا طيبًا وبنة عجيبة لاتخفى على أحد ولايستطيع أن يسميها » .

(٤) الصياح ، بوزن كتان : عطر أو غسل ، كما فى القاموس .

(٥) السخب : جمع سخاب ككتاب ، وهو خيط ينظم فيه خرز وتلبسه الصبيان والجوارى .

فإن ذكروا طِيب سابور[1] فإنما طِيب سابور بطيب أرياح الرَّياحين ، وذلك من ريح رياحينها وبساتينها وأنوارها ، ولذلك يَقْوَى فى زمان ، ويَضعُف فى زمان .

ونحن قد ندخل دجلة فى نهر الأُبلّة بالأسحار ، فنجد من تلك الحدائق ، ونحن فى وسط النهر ، مثل ما يجد أهل سابور من تلك الرائحة .

وطَيْبة[2] التى يسمونها المدينة ، هذا الطِّيب خلقة فيها ، وجوهرية منها ، وموجودٌ فى جميع أحوالها . وإنَّ الطِّيب والمعجونات لتُحمَلُ إليها فتزداد فيها طيبًا ، وهو ضدُّ قَصَبة الأهواز وأنطاكيَّة ، فإنَّ الغَوالى تستحيل الاستحالة الشَّديدة[3] .

ولسنا نشكُّ أنَّ ناسًا ينتابون المواضعَ التى يبيع فيها النَّوَى المُنْقَع ، فيستنشقون تلك الرائحة ، يُعجَبون بها ويلتمسونها ، بقدر فِرارنا نحن من مواقع النَّوى عندنا بالعراق ، ولو كان من النَّوى المَعجوم ومن نَوَى الأفواه[4] .

---

(1) سابور : كورة بأرض فارس ، مدينتها النوبندجان ، أو شهرستان ، وهى كورة نزهة كما ذكر ياقوت .

(2) طيبة ، بالفتح : اسم للمدينة ، وبالكسر : اسم من أسماء زمزم .

(3) الغالية : ضرب من الطيب ، وقد تغلى ، أى تختلق بها .

(4) المعجوم : المدقوق . والأفواه : جمع فوه كسوق ، وهى التوابل ونوافح الطيب .

ونحن لا نشكُّ أنَّ الرجل الذى يأكل بالعراق أربع جَرادق[1] فى مقعد واحد من المَيْسانىّ[2] والمَوصلىّ ، أنّه لا يأكل من أقـراص المدينة قُرصَين ؛ ولو كـان ذلك لغلظ فيـه أو لفـساد كـان فى حبِّه وطَحينه لَظَهـر ذلك فى التُّخَم وسوءِ الاستمراء ، ولتولَّد على طول الأيام من ذلك أوجاع وفساد كثير .

ولم يكن بها طاعونٌ قط ولا جُذام .

وليس لبلدة من البُلدان من الشّهرة فى الفقه مالَهم ولرجالهم ، وذكر عبد الملك بن مروان روح بن زنباع[3] فمدحه فقال : جمع أبو زرعة فقه الحجاز ، ودهاء العراق ، وطاعة أهل الشام .

---

(١) الجردقة : الرغيف ، فارسى معرب . ويقال جرذق أيضاً .

(٢) نسبة إلى ميسان ، بالفتح ، وهى كورة بسواد العراق .

(٣) هو أبو زرعة روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامى . قال ابن حجر فى الإصابة : ذكره بعضهم فى الصحابة ولا يصح له صحبة ، بل يجوز أن يكون ولد فى عهد النبى ﷺ . وكان أحد ولاة فلسطين أيام يزيد بن معاوية . الأغانى ١٧ : ١١١ . وزوجه عبد الملك ابن مروان أم جعفر بنت النعمان بن بشير . الحيوان ١ : ٢٢٦ . وكان سيد جذام . البيان ١ : ٣٤٦ .

٩ - فصل منه
فى ذكر مصر

قال أبو الخَطَّاب[١] : لم يذكر الله جلَّ وعزَّ شيئًا من البُلدان باسمه فى القُرآن كما ذكر مِصْر ، حيث يقول : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾[٢] . وقال : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾[٣] وقال : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾[٤] وقال تعالى ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾[٥] وقال فى آية ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾[٦] .

---

(١) أبو الخطاب هذا هو قتادة بن دعامة السدوسى البصرى . وهو ممن ولد أعمى ، وكان تابعيًا عالمًا كبيرًا نسابة ، وذا علم فى القرآن والحديث والفقه . أخذ عن الحسن وابن سيرين ، وعنه أيوب السختيانى وهشام الدستوائى وسعيد بن أبى عروبة وغيرهم . وروى له البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه . ولد سنة ٦١ وتوفى سنة ١١٧ فى أيام هشام بن عبد الملك . تهذيب التهذيب ، ووفيات الأعيان ، ومعجم الأدباء ، والمعارف ، ونكت الهميان .

(٢) الآية ٢١ من سورة يوسف .

(٣) الآية ٩٩ من سورة يوسف .

(٤) الآية ٨٧ من سورة يونس .

(٥) الآية ٦١ من سورة البقرة . وقرأ الحسن والأعمش : « مصر » بلا تنوين . وانظر إتحاف فضلاء البشر ١٣٧ .

(٦) الآية ٥١ من سورة الزخرف .

وذكر مصرَ فى القرآن بالكناية عن خاصَّة اسمها ، فمن ذلك : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ [1] قالوا : هى مدينة مَنْف ، وهو موضعُ منزل فرعون .

وأخبرنى شيخٌ من آل أبى طالبٍ من ولد علىٍّ صحيحُ الخبرِ : مَنْف دارُ فِرعون ، ودُرْتُ فى مجالسه ومَثاويه[2] وغُرَفه وصفافه ، فإذا كلُّه حجرٌ واحدٌ مَنقور ؛ فإن كانوا هَنْدَموه وأحكموا بناءَه حتّى صار فى الملاسة واحدًا لا يُستَبانُ فيه مَجْمَعُ حَجَرين ، ولا مُلْتَقَى صخرتين فهذا عَجَبٌ . ولئن كان جَبلاً واحدًا ، ودكًّا واحدًا ، فنقَرَتْه الرِّجال بالمناقير حتّى خرقت فيه تلك المخاريق ، إنَّ هذا لأعْجَب .

وفى القرآن : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [3] .

قال : والأرضُ ها هنا مِصْر . وفى هذا الموضع كلامٌ حَسنٌ ، ولكنَّا ندَعُهُ مخافة أن نخرج إلى غير الباب الذى ألَّفْنا له هذا الكتاب .

قالوا : وسمَّى الله تعالى مَلِكَ مِصر « العَزيز » ، وهو صاحبُ يوسف ، وسمَّى صاحبَ موسى « فِرعون » .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة يوسف .

(٢) المثوى : المنزل ، وموضع الإقامة .

(٣) الآية ٨٠ من سورة يوسف .

قالوا : وكان أصلُ عُتُوِّ فرعونَ مُلكَه العظيم ، ومملكته التي لا تُشبهها مملكة .

قالوا : ومنهم مؤمنُ آلِ فرعون ، وهي آسيةُ بنت مُزاحم .

وقال النبي ﷺ : « سيِّدة نساءِ العالَم خديجةُ بنتُ خويلد ، وفاطمة بنتُ محمّد ، ومريمُ بنتُ عِمران ، وآسيةُ بنتُ مُزاحم » .

قال[1] : ولمّا همَّ فرعونُ بقتل موسى قالت آسية : لا تقتلْه عسى أن ينفعَنا أو نتَّخِذه ولداً . وقالت : وكيف تقتله ، ووالله ما يعرف الجمرة من التَّمرة .

ومنهم السَّحرة الذين كانوا قد أبَرُّوا على أهل الأرض[2] ، فلمّا أبصرُوا بالأحلام ، وأيقنوا بالبرهان ، استبصروا وتابوا توبة ما تابها ماعزُ بنُ مالك[3] ، ولا أحدٌ من العالَمين ، حتّى قالوا لفرعون : ﴿ اقْضِ مَا أنتَ قَاضٍ إنَّمَا تَقْضِي هَذه الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، إنَّا آمنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾[4]

---

(١) أي شيخ من آل أبي طالب ، أو لعلها « قالوا » .

(٢) أبروا عليهم إبراراً : غلبوهم . ومنه قول طرفة :

يكشفون الضر عن ذي ضرهم ويبرون على الآبي المبر

(٣) ماعز بن مالك : أحد الصحابة . وقال ﷺ في شأنه : « لقد تاب توبة لو تابها طائفة من أمتي لأجزأت عنهم » ، كما قال : « والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة يتقمس فيها » .

(٤) الآية ٧٢ من سورة طه . ونصها : « فاقض ما أنت قاض » ، والاقتباس من القرآن الكريم مع ترك حرف جائز لا بأس به .

وجاء في الحديث : « من أخرب خزائن الله فعليه لعنة الله » . قالوا : خزائن الله هي مصر ، أما سمعتم قول يوسف : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾[1] .

وقال عبد الله بن عمرو : « البركة عشر بركات تسع بمصر والواحدة في جميع الأرض » .

١٠ - فصل منه

وقال أهل العراق : سألنا بطريق خرشنة[2] عن خراج الروم ، فذكر مقداراً من المال ، وقال : هو كذا وكذا قنطاراً . فنظر بعض الوزراء فإذا خراج مصر وحده يضعف على خراج بلاد الروم إذا جمعت أبواب المال من البلاد جميعاً .

وزعم أبو الخطاب[3] أن أرض مصر جبيت أربعة آلاف ألف دينار .

١١ - فصل منه

ولا أعلم الفرقة في المغرب إلا أكثر من الفرقة في المشرق ، إلا أن

---

(١) الآية ٥٥ من سورة يوسف .

(٢) خرشنة : بلد قرب ملطية من بلاد الروم ، كما في ياقوت . وانظر الحيوان ٣ : ٣١٥ والبيان والتبيين ٢ : ٤٤ ، ٢٦٥ .

(٣) أبو الخطاب قتادة بن دعامة وسبقت ترجمته .

أهلَ المغرب إذا خـرجوا لم يزيدوا على البدعـة والضَّلالة ، والخارجىُّ فى المشرق لا يرضَى بذلك حـتَّى يجوزَه إلى الكفـر ، مثل المقنَّع[1] وشيبان[2] والإصبَهبَذ[3] وبابَك[4] ، وهذا الضَّرب .

---

(١) هذا هو المقنع الخرسانى ، وكان قـد خرج على المهدى بخراسان سنة ١٦١ . وكان أعور قـصاراً ، من قرية يقـال لها « كازه كـيمردان » ، وكـان قد عرف شـيئًا من الهندسة والحيل والنيرنجات فادعى لنفسه الإلهية عن طريق التناسخ ، واحتجب عن الناس ببرقـع من حرير ، ودامت فتنتـه على المسلمين أربع عشـرة سنة ، أباح لهم فيها كثـيراً من المحرمات ، فوجه إليه المهدى عـدة من قواده ، وجعل المقنع يجمع الطعام عدة للحصار فى قلعته بكش ، وقد تمكن سعيد الحرشى من تشديد الحصار عليه ، فلما أحس بالهلكة شـرب سمًا وسقاه نساءه وأهله فماتوا جـميعاً ، ودخل المسلمـون قلعتـه سنة ١٦٣ واحتـزوا رأسه ووجهـوا به إلى المهدى . الطـبرى فى حوادث ١٦١ - ١٦٣ والفرق بين الفرق ٢٤٣ - ٢٤٥ .

(٢) هو شيبان بن عبد العزيز الحرورى اليشكرى ، الذى خرج فى أيام مروان بن محمد بعد مقتل الضحاك بن قيس الشـيبانى رأس الخوارج ، وقد طارده مروان حتى صار شيبان إلى عمان فقتله بها جلندى بن مسعود سنة ١٢٩ .

(٣) هو الفرخان ، إصبهبذ خراسان على طبـرستان . وقد جرى فتح طبرستان على يد سـويد ابن مـقرن سنـة ٢٢ ، وذلك بعد عـهـد بالصلح تاريخـه سنة ١٨ . انظر الطبرى والإصبهبذ هـو بالفارسية « إسبهبد » بتفخـيم الباء الأولى فقـط ، ومعناه : القائد العام .

(٤) هو بابك الخرمى ، رئيس الخرمية بعد موت زعيمهم جاويدان بن سهل ، واشتدت شوكتـه فى أيام المعتصم ، وحاربه الأفـشين واستولى على معقلـه مدينة البذ ، ثم وقع فى يد سهل بن سنباط بطريق أرمينيـة وقبض عليه وهو يصطاد ، وسلمه إلى الأفشين، وصلبه المعتصم سنة ٢٢٣ . الطبرى ، ودائرة المعارف الإسلامية .

١٢ - فصل منه

وقد علمنا أنَّ لجماعةِ بنى هاشم طابَعًا[١] فى وجوههم يستبين به كرمُ العِتق وكَرَمُ النِّجار[٢] ، وليس ذلك لغيرهم .

ولقد كادت الأهواز تُفسِد هذا المعنى على هاشميَّة الأهواز ، ولولا أنَّ الله غالبٌ على أمره لقد كادت طمست على ذلك العتْق ومَحَتْه . فتربتُها خلافُ تربةِ الرسول ﷺ : وذلك أنَّ كلَّ من تخَرَّق طُرق المدينة[٣] وجدَ رائحةً ليست من الأرابيح المعروفة الأسماء .

١٣ - فصل منه

قال زياد : الكوفة جاريةٌ جميلة لا مالَ لها ، فهى تُخطَب لجمالها والبصرة عَجوزٌ شوهاءُ ذاتُ مال فهى تُخَطب لمالِها .

---

(١) والطابع ، بالفتح والكسر : الخاتم الذى يختم به ، وكذا الميسم الذى توسم به الدواب، والمراد هنا العلامة .

(٢) النجار ، بكسر النون : الأصل والحسب .

(٣) تخرق ، أراد يتخلل . ولم أجد نصًا على هذا الفعل إلا ما ورد فى اللسان ١١ : ٣٦ : « قال أبو عدنان : المخارق : الملاص يتخرقون الأرض ، بينا هم بأرض إذا هم بأخرى » . وكذا ما ورد فى الحيوان ٢ : ٣٣١ من قوله : « يتخرق السنانير »

١٤ - فصل منه

والفرات خيرٌ من ماءِ النِّيل[١] . وأمّا دجلة فإنَّ ماءَها يقطع شهوةَ الرِّجال . ويَذهَب بصهيل الخيل ، ولا يَذْهَب بصهيلها إلاَّ مع ذَهاب نشاطها ، ونقصان قوتها ، وإن لم يتنسَّم[٢] النازلون عليها أصابهم قحولٌ في عظامهم[٣] ، ويُبسٌ في جلودهم .

وجميع العرب النازلين على شاطئ دجلة من بغداد إلى بلد[٤] لايرعَوْن الخَيل في الصَّيف على أواريِّها[٥] على شاطئ دجلة ، ولا يَسقُونها من مائها ، لما يخاف عليها من الصُّدام[٦] ، وغير ذلك من الآفات .

وأصحاب الخيل من العِتاق والبَراذين إنَّما يَسقُونها بُسراً من رأى ، ممَّا

---

(١) يعنى نيل الكوفة ، وهو خليج كبير يتخلج من الفرات ، حفره الحجاج بن يوسف وسماه باسم نيل مصر .

(٢) التنسم : طلب النسيم واستنشاقه .

(٣) القحول : اليبس .

(٤) بلد : مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل ، بينهما سبعة فراسخ ، وينسب إليها جماعة كثيرة من العلماء . ويقال لها أيضاً « بلط » بالطاء . قال ياقوت : « وبلد أيضاً : بليدة معروفة من نواحي دجيل قرب الحظيرة وحربى ، من أعمال بغداد ، لا أعرف من ينسب إليها » .

(٥) الأوارى : جمع آرى ، على وزن فاعول . وهو محبس الدابة .

(٦) الصُّدام : بضم الصاد وكسرها : داء يأخذ في رؤوس الدواب . وقال ابن شميل : « داء يأخذ الإبل فتخمص بطونها وتدع الماء وهي عطاش أياماً حتى تبرأ أو تموت » .

احتفروها من كرابهم[1] ولا يسقونها من ماء دجلة ؛ وذلك أن ماء دجلة مختلطٌ ، وليس هو ماءً واحدًا ، ينصب فيها الزابين[2] والنهروانات[3] وماء الفرات ، وغير ذلك من المياه .

واختلافُ الطَّعام إذا دخلَ جوفَ الإنسان من ألوان الطَّبيخ والإدام غير ضارّ ، وإن دخل جوفَ الإنسانِ من شرابٍ مختلف كنحو الخمر والسَّكَر ونَبيذ التمر والدَّاذيّ كان ضارًا . وكذلك الماءُ لأنَّه متى أراد أن يتجرَّع جُرَعًا من الماءِ الحارّ لصَدْره أو لغير ذلك ، فإنْ أعجَلَه أمرٌ فبرّده بماء بارد ثم حَسَاه ضرَّه ذلك ، وإنْ تركَه حتَّى يفتُر ببَرْد الهواء لم يضرَّه . وسبيل المشروب غير سبيل المأكول .

فإن كان هذا فضيلةَ مائنا على ماء دجلة فما ظنُّك بفضله على ماء البصرة ، وهو ماءٌ مختلط من ماء البحر ومن الماء المستَنْقع فى أصول القصب والبَرْديّ ؟ قال الله تعالى : ﴿ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [4] .

---

(١) الكراب : مجاري الماء في الوادي .

(٢) الزابين : مثنى الزاب ، الزاب الأعلى والزاب الأسفل . فالأعلى بين الموصل وإربل . والأسفل مخرجه من جبال السلق ، وبينه وبين الأعلى مسيرة يومين أو ثلاثة .

(٣) هي ثلاث نهروانات : الأعلى ، والأوسط ، والأسفل ، وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقى .

(٤) الآية ٥٣ من سورة الفرقان .

والفرات أعـذبها عُذوبة ، وإنما اشـتُقَّ الفُرات لكلِّ مـاءٍ عذب ، من فُرات الكوفة .

١٥ - فصل منه
فى ذكر البصرة

كان يقال : الدُّنيا البصرة .

وقـال الأحنف لأهل الكوفـة : « نحن أعْذَى منكم برِّيَّة[١] ، وأكثر منكم بحريَّة ، وأبعد منكم سَرِيَّة ، وأكثر منكم ذُرِّيَّة[٢] .

وقال الخليل بن أحمد فى وصف القصر المذكور بالبصرة [٣] :

زُرْ وادىَ القصر نعم القصرُ والوادى

لا بـدَّ من زَورةٍ عَـنْ غيـر ميعـاد

(١) « أعذى » بالذال من العذاة بفتح العين ، وهى الأرض الخصبة .

(٢) نظير هذا القـول فى معجم البلدان فـى رسم الكوفة ، منسوب إلى عـبد الملك بن الأهتم السـعـدى بلفظ : « نحن والله يا أمير المؤمنـين أوسع منهم برية ، وأعد فى السـرية ، وأكثـر منهم ذرية ، وأعظم مـنهم نفراً . يأتـينا ماؤنا عـفـواً صفـواً ، ولايخرج من عندنا إلا سائق أو قائد » .

(٣) والقصـر الذى يشير إليـه هو قصر أوس بن ثـعلبة بن زفر بن وديعـة ، وكان ولى خراسان فى الدولة الأموية . وبالبصـرة أيضًا قصر أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ . وانظر معجم البلدان .

ترقَى بهــا السُّفــنُ والظُّلمان واقفــةٌ

والضَّبُّ والنُّونَ والملاَّحَ والحـادى[١]

ومن أتى هذا القـصرَ وأتى قـصر أنَس[٢] رأى أرضًا كالكـافور[٣] ، وتُربة ثريَّة ، ورأى ضبًّا يُحتَرش ، وغزَالاً يُقتَنَص ، وسمكًا يُصاد ، مابين صاحب شِصٍّ وصاحب شبَكة ، ويَســمع غناءَ ملاَّحٍ على سكَّانه ، وحُداء جَمَّالٍ على بَعيره .

قالوا : وفى أعلى جَبَّانَة البصرة موضعٌ يقال له الحَزيز[٤] يذكر الناس أنَّهمْ لم يرَوْا قطُّ هواءً أعدَلَ ، ولا نـسيمًا أرَقَّ ، ولا مـاءً أطيبَ منها فى ذلك الموضع .

وقال جعفر بن سليمان : « العراق عَيْن الدُّنيا ، والبَصرة عَيْنُ العراق ، والمِربد عَيْن البَصْرة ، ودَارِى عَيْنُ المِربد » .

وقال أبو الحسن وأبو عبـيدة : « بُصِّرت البَصْرة سنة أربعَ عـشرة ، وكُوِّفت الكوفة سنة سبعَ عشرة » .

---

(١) الظلمان ، بالكسر والضم أيضًا : جمع ظليم ، وهو ذكر النعام .

(٢) هو قصر أنس بن مالك .

(٣) الكافور ؛ ضرب من الطيب .

(٤) الحزيز ، بزاءين معجمتين ، كما فى معجم البلدان .

١٦ - فصل منه

زعم أهلُ الكوفة أنَّ البصرة أسرعُ الأرضِ خرابًا ، وأخبثُها ترابًا ، وأبعدُها من السَّماء وأسرعُها غرقًا ، ومَغيض مائها البحر ، ثم يخرج ذلك إلى البحرِ الأعظم .

وكيف تغرق ، وهم لا يستطيعون أن يُوصِلوا ماءَ الفَيْض إلى حِياضهم إلاَّ بعد أن يرتفع ذلك الماءُ في الهواءِ ثلاثين ذراعًا ، في كلِّ سقاية بعينها ، لا لحوضٍ بعينه .

وهذه أرض بغداد في كلِّ زيادة ماءٍ ينبُع الماءُ في أجواف قصورهم الشَّارعة بعد إحكام المسنَّيات[1] التي لا يقوى عليها إلاَّ الملوك ، ثم يهدمون الدَّار التي على دجلة فيكسُون بها تلك السِّكك ، ويتوقَّعون الغَرَق في كلِّ ساعة .

قال : وهم يَعيبون ماءَ البصرة ، وماءُ البصرة رقيقٌ قد ذهب عنه الطِّين والرَّمل المَشُوب بماءِ بغدادَ والكوفة ، لطول مُقامه بالبَطيحة ، وقد لانَ وصفا ورَقَّ .

وإنَّ قلتم : إنَّ الماءَ الجاريَ أمرأُ من الساكن ، فكيف يكون ساكنًا مع تلك الأمواج العظام والرِّياح العواصف ، والماء المنقلب من العلْو إلى

---

(١) المسنيات : جمع مسناة ، وهو سد يبنى لحجز ماء السيل أو النهر ، به مفاتح للماء تفتح على قدر الحاجة .

السُّفل ؟ ومع هذا إنَّه إذا سار من مَخرجه إلى ناحية المَذَار[1] ونهر أبي الأسد[2] وسائر الأنهار ، وإذا بعُد من مدخله إلى البصرة من الشقّ القصير ، جرى منقضاً إلى الصخور والحجارة ، فراسخ وفراسخ ، حتّى ينتهي إلينا .

ويدلُّ على صلاح مائهم كثرة دورهم ، وطول أعمارهم ، وحسن عقولهم ، ورفق أكفهم ، وحذقهم لجميع الصناعات ، وتقدُّمهم في ذلك لجميع الناس .

ويُستدلُّ على كرم طينهم ببياض كيزانهم وعذوبة الماء البائت في قلالهم ، وفي لون آجُرِّهم ، كأنَّما سُبِك من مخّ بيض[3] . وإذا رأيت بناءهم وبياض الجصّ الأبيض بين الآجُرّ الأصفر لم تجد لذلك شبهاً أقربَ من الفضّة بين تضاعيف الذهب .

فإذا كان زمان غلبة ماء البحر فإنَّ مستقاهم من العذب الزلال الصافي، النَّمير في الأبدان[4] ، على أقلَّ من فرسخ ، وربما كان أقلَّ من ميل .

---

(١) المذار : بلدة في ميسان بين واسط والبصرة ، فتحها عتبة بن غزوان في أيام عمر بن الخطاب بعد البصرة .

(٢) ذكره ياقوت وقال : « أحد شعوب دجلة بين المذار ومطارة في طريق البصرة ، يصب هناك في دجلة العظمى » .

(٣) مخ البيض : لعلها في داخله من الصفرة وأبيض . والمخ أيضاً : صفرة البيض ، وبياضه هو الغرقىء .

(٤) النمير : الزاكي الناجع في الري .

ونهر الكوفة الذى يسمُّونه إنَّما هو شُعبةٌ من أنهار الفرات ، وربَّما جَفَّ حتَّى لا يكون لهم مستقًى إلاَّ على رأس فرسخ ، وأكثَرَ من ذلك ، حتَّى يَحفروا الآبارَ في بُطون نُهُرهم[1] ، وحتَّى يضرَّ ذلك بخُضَرِهم وأشجارهم . فلينظُروا أيُّما أضرُّ وأيُّما أعيَب .

وليس نهرٌ من الأنهار التى تَصبُّ فى دجلة إلاَّ هو أعظم وأكبر وأعرض من موضع الجسر من نهر الكوفة ، وإنَّما جسره سبع سفائن ، لا تمرُّ عليه دابَّةٌ لأنها جُذوعٌ مقيَّدةٌ بلاَ طينٍ ، وما يمشى عليه الماشى إلا بالجهد ؛ فما ظنُّك بالحوافر والخِفاف والأظلاف؟!

وعامّةُ الكوفة خَرَابٌ يَباب[2] ، ومن بات فيها علم أنّه فى قريةٍ من القرى ورُستاقٍ من الرَّساتيق ، بما يَسمَعُ من صِياح بنات آوَى ، وضُباحِ الثَّعالب ، وأصوات السباع . وإنَّما الفرات دمًا إلى ما اتَّصل به إلى بلاد الرَّقَّة ، وفوق ذلك .

فإمّا نهرهم فالنِّيل أكبَرُ منه ، وأكثر ماءً ، وأدْوَمُ جريَةً .

وقد تعلمون كثرة عددِ أنهار البصرة ، وغلبةَ الماءِ ، وتَطفُّح الأنهار[3].

---

(١) النهر ، بضمتين : جمع نهر . وفى الكتاب العزيز : « إن المتقين فى جنات ونهر » فى قراءة زهير ، والأعمش ، وأبى نهيك ، وأبى مجلز اليمانى ، وهو كرهن ورهن . تفسير أبى حيان ٨ : ١٨٤ . وقراءة الجمهور : « ونهر » بفتحتين .

(٢) اليباب : إتباع للخراب بمعناه .

(٣) التطفح : مطاوع طفحه تطفيحًا : ملأه . ولم تذكر المعاجم هذا المطاوع .

وتبقى النَّخلة عشرين ومائةَ سنة وكأنَّها قِدح[1] . وليس يُرَى من قُرْب القَرية التى يقال لها « النِّيل » إلى أقصى أنهـار الكوفة نخلةٌ طالت شيئًا إلا وهى مـعـوجَّة كـالمِنجل . ثم لم نـر غـارسَ نخلٍ قطُّ فى أطراف الأرض يرغب فى فـسيل كـوفى ، لعلمـه بِخُبْث مَغْرِسه ، وسُوِ نُشُوِّه ، وفَسـاد تُربته ، ولُؤم طبعه .

وليس لليَالى شـهرِ رمضـان فى مسـجدهم غَضَارةٌ ولا بَهَاءٌ ، وليس مَنَار مساجدهم [2] على صُوَرِ مَنارِ البَصْرة ، ولكن على صُوَر مَنار الملكَانية واليعقوبِيَّة .

ورأينا بها مسجدًا خرابًا تأويه الكلابُ والسِّباع ، وهو يضاف إلى علىّ بن أبى طالب ، رضوانُ الله عليه .

ولو كـان بالبصـرة بيتٌ دخلَه علىٌّ بن أبى طالب مارًا لـتمسَّحـوا به وعَمَروه بأنفسهم وأموالهم .

وخـبَّرنى من بات أنَّه لم ير كـواكبـهـا زاهرةً قطُّ ، وأنَّه لم يَرَها إلاَّ ودونها هبْوة[3] ، وكأنَّ فى مائهم مِزاجَ دُهْن . وأسواقُهم تشهد على أهلها بالفَقْر . وهم أشدُّ بغضًا لأهل البصرة من أهل البَصْرة لهم ؛ وأهل البصرة هم أحسن جوارًا ، وأقلُّ بذخًا ، وأقلُّ فخرًا .

---

(١) القدح ، بالكسر : السهم قبل أن يراش وينصل .

(٢) المنار : جمع منارة ، وهى المئذنة .

(٣) الهبوة : الغبرة .

ثم العَجَب من أهل بغدادَ وميلِهِم معهم ، وعـيبِهم إيَّانا فى استعمال السَّماد فى أرضنا ولنخلنا ، ونحن نراهم يُسـمِّدون بُقُولَهم بالعَذِرة اليابسة صِرفًا ، فإذا طلعَ وصـار له ورقٌ ذَرَّوْا عليه من تلك العَذِرة اليابسـة حتَّى يسكنَ فى خلال ذلك الورق .

ويريد أحدُهم أن يبنىَ دارًا فيجىءُ إلى مَزْبلة[1] ، فيضرب منها لَبِنًا، فـإن كانت داره مطمـئنَّةً ذاتَ قـعرٍ حـشا مـن تلك المَزبلة التى لو وَجَدَها أصحابُ السَّماد عندنا لَبَاعُوها بالأموال النفسية .

ثم يَسجُرون تَنانيرهم بالكُسَاحات التى فـيها من كلِّ شىء ، وبالأبعار والأخثاء ، وكذلك مواقد الكِيران[2] .

وتمتلئ ركايا[3] دُورهم عَذِرةً فلا يصيبون لها مكانًا ، فيحفرون لذلك فى بيوتهم آبارًا ، حـتَّى ربما حَفَر أحدُهم فى مجلسـه ، وفى أنبل موضع من داره . فليس ينبغى لمن كان كذلك أن يعيب البَصريِّين بالتَّسميد .

١٧ - فصل منه

وليس فى الأرض بلدةٌ أرفقُ بأهلها من بلدةٍ لا يعـزُّ بها النَّقْد ، وكلُّ مبيع بها يمكن .

---

(١) المزبلة ، بفتح الميم والباء ، وبفتحها مع ضم الباء : الموضع الذى يلقى فيه الزبل .

(٢) الكيران : جمع كور ، بالضم ، وهو مجمرة الحداد .

(٣) الركايا : جمع ركية ، وهى البئر .

فالشَّامات وأشباهُها الدِّينار والدِّرهمُ بها عزيزان ، والأشياءُ بها رخيصة لبعد المَنْقَل ، وقلَّة عدد من يَبْتاع . ففى ما يخرج من أرضهم أبدًا فضلٌ عن حاجاتهم .

والأهواز ، وبَغداد ، والعسكر ، يكثرُ فيها الدَّراهم ويعزُّ فيها المبيع لكثرة عددِ الناس وعدد الدراهم .

وبالبصرة الأثمانُ ممكنة والمُثمَّنات ممكنة ، وكذلك الصِّناعات ، وأجورُ أصحاب الصناعات . وما ظنُّك ببلدة يدخلها فى البادى[1] من أيَّام الصِّرام إلى بعد ذلك بأشهرٍ، ما بين ألفَىْ سفينةِ تمرٍ أوْ أكثر فى كلِّ يوم، لا يبيت فيها سفينةٌ واحدة ، فإنْ باتت فإنَّما صاحبُها هو الذى يُبيِّتُها، لأنَّه لو كان حطَّ[2] فى كلِّ ألف رطلٍ قيراطًا لانتُسِفَت انتسافا[3] .

ولو أنَّ رجلاً ابتنى دارًا يُتمِّمها ويكمِّلها ببغداد ، أو بالكوفة ، أو بالأهواز ، وفى موضعٍ من هذه المواضع ، فبلغت نفقتُها مائة ألف درهم ، فإنَّ البصريَّ إذا بَنَى مثلهَا بالبصرة لم يُنفق خمسينَ ألفًا ؛ لأنَّ الدَّارَ إنَّما يتمُّ بناؤها بالطِّين واللَّبِن ، وبالآجُرِّ والجصِّ ، والأجذاع والسَّاج والخشب، والحديد والصُّنَّاعِ ، وكُلِّ هذا يُمكن بالبَصْرة على الشَّطرِ مما يُمكن فى غيرها . وهذا معروف .

---

(١) أى البادئ : وهو الأول .

(٢) أى وضع من الثمن وأرخصه .

(٣) القيراط بالعراق : نصف عشر الدينار .

ولم نر بلدةً قطُّ تكون أسعارها ممكنة مع كثرة الجَماجم[1] بها إلاَّ البصرة : طعامُهم أجْوَدُ الطَّعام ، وسعرُهم أرخص الأسعار ، وتمرهم أكثَرُ التُّمور ، ورَيْع دِبْسِهم أكثر[2] ، وعلى طُول الزَّمان أصْبَرَ ، يَبْقَى تمرُهم الشُّهريز[3] عشرين سنة ، ثم بعد ذلك يُخلَط بغيره فيجيءُ له الدِّبس الكثير ، والعَذْبُ الحلو ، والخاثر القويّ[4] .

ومن يطمع من جميع أهل النَّخل أن يبيع فسيلةً بسبعين ديناراً ، أو بَحْوَنَة[5] بمائة دينارٍ ، أوْ جَرِيبًا بألف دينار[6] غير أهل البصرة ؟

١٨ - فصل منه

ولأهل البصرة المدُّ والجَزْر على حسابِ منازل القمر لايغادران من ذلك شيئًا . يأْتيهم الماءُ حتَّى يقف على أبوابهم ؛ فإن شاءُوا أذِنُوا ، وإن شاءُوا حَجَبوه .

---

(١) أى الآبار والجمجمة هى البئر تحفر فى السبخة وتجمع على جمجم وجماجم .

(٢) الريع ، بالفتح : فضل كل شيء ، كريع العجين والدقيق والبزر ونحوها .

(٣) الشهريز بكسر الشين وضمها : ضرب من التمر ، ويقال أيضًا سهريز بالسين المهملة ويكسر السين وضمها .

(٤) الخاثر : الغليظ .

(٥) البحونة بفتح الباء والواو : ضرب من التمر .

(٦) الجريب : مساحة تربو على ثلاثة آلاف وستمائة ذراع ، يختلف ذلك باختلاف البلدان.

ومن العَجَب لقومٍ يعـيبون البـصرةَ لقُرب البحر والبَطيـحة[1] ؛ ولـو اجـتهـد أعلَمُ النَّاس وأنطَقُ النَّاسِ أن يجـمَع فى كتـابٍ واحـد منافعَ هذه البطيحة ، وهذه الأجمَة ، لما قَدَر عليها .

قال زياد : قَصبةٌ خير من نَخْلة .

وبحقٍّ أقـول : لقد جَهَدت جَهْدى أن أجـمَعَ منافعَ القـصب ومَرافقِه وأجناسَه ، وجميعَ تصـرُّفِه وما يجىء منه ، فما قَدَرت عليه حـتَّى قطعته وأنا معترفٌ بالعجز ، مستسلمٌ له .

فأمَّا بحرُنا هذا فقد طمَّ على كلِّ بحر وأوفى عليه ؛ لأنَّ كلَّ بحرٍ فى الأرض لم يَجعلِ الله فـيه من الخيـرات شيئًا ، إلاَّ بحـرَنا هذا ، الموصولَ ببحر الهند إلى ما لا تذكر .

وأنت تسمع بملوحة ماءِ البحر ، وتستسقطه وتُزْرِى عليه . والبحر هو الذى يَخلقُ الله تعـالى منه الدُّرَّ الذى يبـعت الواحـدة منه بخـمـسين ألفَ دينار؛ ويَخلقُ فى جوفـه العَنْبر ، وقـد تَعرِفون قَدْرَ العنبـر . فشىءٌ يولِّد هذين الجوهرينِ كيف يُحقَّر ؟

ولو أنَّا أخذْنا خصالَ هذه الأجَمَة وما عظَّمنا من شـأنها ، فقذَفْنا بها فى زاوية من زوايا بحـرِنا هذا لضَلَّتْ حـتَّى لا نجـد لهـا حِسًّا ، وهُمَا لنا

---

(١) البطيحـة : أرض واسعة بين واسط البصرة ، جـمعها بطائح ، سـميت بذلك لأن المياه تبطحت فيها ، أى سالت واتسعت فى الأرض .

خالصانِ دونكم ، وليس يصل إليكم منهما شىءٌ إلاَّ بسببِنا وتعدينا فضل غنا .

وقال بعض خطبائنا [١] : نحن أكرمُ بلاداً ، وأوسَع سواداً[٢] ، وأكثر ساجًا وعاجًا وديباجًا ، وأكثر خَراجًا .

لأنَّ خراجَ العراق مائةُ ألفِ ألفِ واثنا عَشَرَ ألفَ ألف ، وخراج البصرة من ذلك ستُّون ألفَ ألف ، وخراجَ الكوفة خمسون ألفَ ألف .

١٩ - فصل منه
فى ذكر الحيرة

ورأيت الحيرة البيضاءَ وما جعلها الله بيضاءَ ، وما رأيت فيها داراً يُذكَر إلاَّ دار عَوْن النَّصرانىِّ العبادانِّى [٣] .

ورأيت التُّربة التى بينها وبين قَصَبَة الكوفة ، ورأيت لون الأرضِ فإذا هو أكهب[٤] كثير الحَصَى ، خشِنُ المسِّ .

والحِيرة أرض باردةٌ فى الشِّتاء ، وفى الصَّيف يَنزِعون سُتُورَ بيوتهم مخافة إحراق السَّمائم لها .

---

(١) هو أبو بكر الهذلى ، كما فى البيان ١ : ٣٥٧ / ٢ : ٩٤ .

(٢) السواد : القرى والريف .

(٣) ذكره الجاحظ فى الحيوان ٤ : ٢٧ قال : « وكان طيمانو رئيس الجاثليق ، قد هم بتحريم كلام عون العبادى عندما بلغه من اتخاذ السرارى » والمعروف فى النسبة إلى « العباد » : عبادى .

(٤) الكهبة ، بالضم : غبرة مشربة سواداً .

المختار من رسائل الجاحظ

رقـــم الايـــداع

٩٨/٨٠٩٤

I.S.B.N. 977-01-5725-2



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

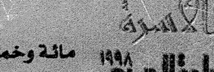
شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

مائة وخمسون قرشاً



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب